. ولد أباه

الشنقيطي

رواية



الكتاب : **الشنقيطي**
المؤلف : **السيد ولد أباه**
الطبعة : الأولى 2021
عدد الصفحات : 216
القياس : 14،5 × 21،5
الإيداع القانوني : 2020MO2522
الترقيم الدولي : 1-48-627-9920-978

الناشر: **المركز الثقافي للكتاب**
الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com
بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

السيد ولد أباه

الشنقيطي

رواية



الإهداء

هذه الرواية مهداة إلى الزعيم الوطني الأمير محمد فال ولد عمير

(توفي أيار/مايو 1965)

عثر على هذا المخطوط النادر في مدينة مراكش في نيسان/ أبريل 1989 وقد صادف هذا التاريخ حدثاً سعيداً هو إعلان اتحاد المغرب العربي، وحدثاً مأساوياً أليماً هو الفتنة المشؤومة التي اندلعت ما بين السنغال وموريتانيا، وسبحان من تتلون أقداره وقد قال في محكم كتابه:

إنه ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرَّحمٰن: 29].

الفصل الأول

جاءني كتابك أيها الابن الكريم متضمناً طلبك أن أكتب إليك ما علق بالذاكرة من أخبار وحوادث كنت شاهداً عليها خلال السنين الطوال التي قضيتها مترحلاً بين حواضر وأمصار وبوادي هذه الأنحاء الفسيحة الممتدة من أوسط الأطلس إلى جنوب نهر صنهاجة من بلاد السودان، وكنت فيها حاضراً لكثير من الأحداث ومشاركاً في الكثير منها.

وقد ترددت في الاستجابة للطلب، لا على سبيل الإحجام والتمنع، وإنما خوفاً من تلبيس الحقائق وطمس الوقائع بعد أن ضعفت الذاكرة وقد بلغت من العمر عتياً، وضعف البصر والذهن، ولم يبق من الهمة إلا ما يؤدى به حق الخالق من فرض وذكر، بيد أن محبتك غلبت على التردد والوفاء لجدك الذي كان نعم الأخ والصديق في بلاد السوس قد دفعني لأغالب النسيان وأتذكر ما أمكن من ماض متقلب غني بالتحولات والمستجدات، ولعل في المكتوب ذكرى وعبرة.

ولست أيها الولد الحبيب محدثك عن نشأتي وطفولتي وما اكتنف مولدي من ظروف وأمور عارضة، فنحن في هذا الإقليم الصحراوي على عكس أبناء الحواضر الكبرى ليس لدينا ما نتحدث عنه من خصوصيات حميمية أو ميزات ذاتية. كل الأطفال يولدون بالطريقة نفسها ويسلكون المسار ذاته في نشأتهم منذ قدومهم إلى هذه الدنيا إلى خروجهم منها، القابلة التي تحملهم عند صراخهم الأول لا تتغير وإن تبدل اسمها، ومدرس القرآن الكريم الذي يعلمهم حروف الأبجدية قبل أن يلقنهم سُوَر المصحف الشريف وأحزابه هو نسخة من سلفه، وكذا المدرس الذي سيتلقون منه علوم الشرع واللغة. إنهم يعيشون في بيوت من الحجر والطين لا فرق بينها في أدق التفاصيل، ويقتاتون من المائدة نفسها من خبز وشعير وتمر وحليب إبل وغنم، ينامون على أسرة سعف النخيل والزرابي نفسها، يتقاسمون شظف العيش وسويعات الفرح القليلة، يأنفون من الشكوى والضجر ويخفون آلامهم وأحزانهم بقدر ما يخفون مشاعر ابتهاجهم ورضاهم.

فعندما ولدت في مدينة شنقيط في شتاء 1060 للهجرة، لم يكن مولدي حدثاً في المدينة التي تستقبل أولادها بالحياء نفسه الذي تزوج فيه شبانها وتودع فيه شيوخها في المقبرة المطلة على الجامع العتيق على الضفة اليسرى للبطحاء التي نعتبرها من معالم المدينة القليلة باعتبارها ذاكرة الجماعة ومخزن أسرارها.

ومع أن الأحداث قليلة في المدينة التي لا يهتم أهلها كثيراً

بمتابعة سير الزمن إلا ما توقف عليه أمر تعبدي من صوم وزكاة وخروج للحج، إلا أن مولدي صادف أحد تلك الأحداث النادرة التي تخرج المدينة من رتابتها إنه هجرة جدي القاضي عبد الله عالم المدينة الأكبر وشيخ شيوخها الذي خرج محتجاً على الفتنة التي اندلعت بين بعض بطون عشيرته. كان خروج القاضي حدثاً كبيراً في المدينة أدركت وقعه وأنا في السن الرابعة إذ لم يزل أوانها الشغل الشاغل لسكان المدينة المنكوبة التي هاجر حي كامل منها إلى واد «تيجكجة» في حين رحل جدي إلى أقصى الجنوب في منطقة «إكيدي» المطلة على بلاد السودان.

كلما سألت والدي «محم» الذي بقي في شنقيط ليقوم بمقام جدي في تدريس العلم وتحرير الفتوى عن سر رحيل والدي، كان يجيبني على طريقة كل سكان شنقيط بالإشارات المبهمة التي أوحت لي بأن القوم يخفون عورة أخجلتهم ولا يريدون التبسط في تفسير نزاع ليس له أسباب مقنعة للعقل. لقد عرفت من أبي أن هذه الحرب لم تشتت أوصال الجماعة ولم تؤثر على عاداتهم في تدبير شأن المدينة من إمامة وقضاء وتجارة، القتال لا يكون إلا في الصف والهارب لا يلحق ولا اقتتال في الليل، وكأن هذه الحرب نمط من التروض والفسحة في بلاد ليس فيها من أمور اللهو والترفيه إلا القليل الذي لا يذكر.

كل ما كنّا ندرك نحن الأطفال هو أن المدينة قد تناقص سكانها، فكثرت فيها البيوت المهجورة التي سقطت أسقفها

وانتزعت أبوابها، فتحولت إلى أوكار مناسبة للعبة التخفي التي هي إحدى اللعب القليلة المتوفرة لأطفال شنقيط.

ولم يكن جدي القاضي عبد الله هو الراحل الوحيد من أعيان المدينة احتجاجاً على الفتنة المشؤومة، بل إن شيخي الطالب ابن بلعمش غادر المدينة إثر شيخه القاضي، لكنه لم يبتعد كثيراً، مكث سنوات في مدينة «أوجفت» قبل أن يعود إلى شنقيط لتصدر التدريس والإفتاء.

لم تكن الأخبار تأتينا من منطقة «القبلة» التي رحل إليها جدي إلا لماماً.. أذكر تلك الرسالة التي أتت بعد أعوام من رحيله مع شاب شمشوي اسمه «الماحي» قدم إلينا من أجل الانضمام لركب الحج السنوي، وكانت رسالة مختصرة طلب فيها موافاته ببعض الكتب التي يحتاج إليها في موطنه الجديد... لم تحدثنا الرسالة عن تلك البلاد البعيدة التي كانت مخيلتي الطفولية تتصورها في شكل غابة من السباع والفيلة والوحوش الضارية... قرأ والدي الرسالة واكتفى بحمد الله دون أن أقرأ على وجهه لهفة الحنين ولوعة الشوق... كان شديد القرب من أبيه وشيخه الذي استنسخ سلوكه بل ميوله ونوازعه.

في كل السنوات التي قضيت إلى جانب أبي وقد تخللتها رحلاتي الطويلة في مناكب أرض الله الفسيحة لا أتذكر أن برنامجه اليوم قد تغير... كان يصحو باكراً، بل على الأصح القول أنه يخرج من بيته قبيل صلاة الفجر لأنه يهجر فراشه منذ الثلث

الأخير من الليل، وعلى عادة رجال شنقيط كلهم يحضر أذان الفجر في مسجد شنقيط جالساً في الصف الأول من صفوف المصلين في أقصى يسار الصف بين صديقيه اللذين لا يغيران أبداً مكان جلوسهما: التاجر «يحي» مسير قافلة شنقيط وكبير تجار المدينة و«عبد الرحيم» الذي يطلق عليه سكان المدينة تسمية «المجذوب» الدالة على عجيب سلوكه وغريب أطواره.

ولقد تعود أبي على البقاء في المسجد المفروش بالحصى النظيفة حتى طلوع الشمس، حيث يصلي ركعتي الضحى ويعود إلى البيت لا لأجل وجبة الفطور التي لا نعرفها في شنقيط، وإنما للاضطجاع قليلاً قبل الشروع في برنامج التدريس الذي لا يتوقف إلا لأجل تأدية الصلوات أو لتناول وجبة خفيفة وقت الظهيرة، ولا تنتهي حلقة التدريس قبل صلاة المغرب.

لم يكن يغادر إلا قليلاً «سكفة» البيت أي قاعة الدار الفسيحة المفتوحة التي يستقبل فيها زواره ويلتقي فيها بأهل بيته، ويلج منها إلى المخازن العديدة الملحقة بها بما تحتويه من تمور وحبوب وأقمشة وبعض ودائع التجار التي تنتظر انطلاق القوافل السنوية المتجهة شمالاً أو شرقاً.

نادراً ما كان يمر أبي بصحن البيت المفتوح الذي هو المكان المفضل للأطفال للعب وللنساء لتبادل الإشاعات والأحداث المستجدة في المدينة، وفي ليالي الصيف الحارة كنا نلتحق به على سطح المنزل للنوم... ومع أن دار أبي من أفسح دور شنقيط

بغرفها العديدة، إلا أن أغلب هذه الغرف تظل معطلة طول السنة، لا ندخلها إلا في ليالي الشتاء القارسة التي لا تزيد على أسابيع ثلاثة في السنة... وبعض هذه الغرف يخزن فيها والدي كتبه الكثيرة المتناثرة. في حين نستخدم إحدى الغرف الصغيرة المطلة على الصحن مطبخاً لإعداد الطعام الذي لم يكن يتبدل: صحن كسكس جماعي ليلاً وثريداً بالنهار... ولا يذهبن بك الخيال أيها الحبيب لتظن أن هذا البيت الواسع شبيه ببيوت الأغنياء في مراكش ومكناسة، فهو مجرد دار للسكن في حدوده الدنيا. توفر الظل والمأوى والحماية دون تصنع أو رفاهية. مصنوعة من مواد محلية من الحجارة المقطعة والطين الذي يستخدم أساساً لطلاء الجدران مما نجلبه من مغارات «اغوجي» التي تحاك حولها غرائب القصص التي تخوف الطفال والسذج... أما أسقف البيوت في مدينتنا فهي أساساً من جذوع النخل وبعض أشجار الصحراء التي نجلبها من خارج البلدة.

مسجد شنقيط هو مركز وجودها وركن حياتها.. إنه ليس مجرد مكان للصلاة والعبادة، بل هو مجلس التشاور والرأي والقرار ونادي كبار القوم وقاعة الدرس والفتوى والقضاء، تربط العقود فيه وتعلن فيه الزواجات ويصلى على الأموات... يرده رجال شنقيط أكثر مما يردون بيوتهم ويلهو في ساحته الأطفال ويؤمه الغرباء... تنتفي خلافاتهم في رحابه ويتناسون أصولهم وأحسابهم عندما يلجون إليه، فيه يتحررون من نوازعهم وأهوائهم ويتوحدون

في إرادتهم وقرارهم... كان أحد زوار المدينة من أشراف سجلماسة يقول مازحاً إن لكل مدينة جامع إلا شنقيط فإنها جامع تحيط به مدينة.

عندما كنت طفلاً كنت أقضي على عادة أطفال المدينة أوقات الصلاة في صحن المسجد الفسيح، وكثيراً ما أصحب والدتي التي تحرص على حضور صلاة المغرب والعشاء في المصلى النسوي المطل على الصحن، وربما صعدت إلى المئذنة المهيبة التي تطل من عل على المدينة. أما أبي فكان له مكانه الثابت الذي لا يتبدل عند أحد أروقة الجامع الوسطى في مقابل محراب الصلاة ومنبر الإمام ذي الدرجات الخشبية الواطئة...

حياة أبي خارج المسجد لم تكن سوى امتداد لوجوده فيه.. فبعد الصلاة والدرس تستمر جلسات المسجد في شكل مسامرة علمية متصلة إلى قبيل منتصف الليل. لم يكن أبي يضجر من هذا البرنامج القاسي الذي تعود عليه، بل لعله اعتقد أنه من طبائع الفطرة وسنن الكون الثابتة لا خيار له فيه ولا تدخل. كانت جلسة المسامرة الليلية تتم صيفاً في فناء البيت وفي الشتاء داخل غرفة الجلوس المألوفة في المنازل الشنقيطية أي السكيفة التي حدثتك عنها... ولم يكن صديقا الوالد الوحيدان يحي وعبد الرحيم يغيبان عنها.

عندما عرفت يحي وأنا طفل صغير كان في سن والدي في العقد الخامس من عمره... كان قصير القامة، نحيل الجسم،

كثيف الشعر، يميل للسمرة قليلاً، لا يفتر عن حفظ القرآن الكريم حتى وهو يتحدث مع جلسائه.. وكان مع شدة ورعه وإقباله على العلم تاجراً بارعاً له شهرة واسعة على طول مسالك التجارة المنطلقة من شنقيط أو القادمة لها.. سكن سنوات في إقليم توات وهناك تزوج وأنجب ولداً لم نسمع عنه شيئاً، كما أقام بعض الوقت في تنبكتو وكان له فيها متجر معروف يبيع فيه التمر.. لكنه منذ رجع إلى شنقيط قبل مولدي بقليل لم يخرج منها وكان يقول إنه عزم على الإقامة الدائمة في مدينته بعد أن حج بيت الله وأصبح له من المال ما يكفي للإنفاق على عياله: مزرعة نخيل وقطيع من الإبل.. بيد أن تجار المدينة ناشدوه أن يكون مشرفاً على تسيير القوافل التجارية مقابل نسبة محدودة يدفعونها له من أرباحهم.. كانت مهمة يحي بسيطة، لا تحتاج عملاً دائماً أو جهداً كبيراً، كل ما هو مطلوب منه هو ترتيب موعد انطلاق القافلة واختيار الدليل الذي يرافقها والتعاقد مع الحراس الذين يحرسونها وتدوين البضائع التي تحملها، أما بقية الإجراءات فيتكفل بها التجار أنفسهم الذين يسيرون في الركب.

عندما بدأت التعقل وإدراك أمور الحياة لم تكن القوافل المنطلقة من شنقيط بالحجم الذي سمعت الناس يحكون عنها.. سمعتهم يذكرون أنه انطلقت مرة من شنقيط قافلة من اثني وثلاثين ألف جمل محملة بالملح لتباع في «زار» من بين عشرين ألف جمل لأهل شنقيط وحدهم... ما أبعد هذا التاريخ من اليوم..

القافلة لا تتعدى عشرات الجمال، بعد أن انقطعت السبل وأصبحت الطريق إلى بلاد السودان مخوفاً، أما حواضر السوس وتوات فقد تعرضت أوانها لخراب شامل إثر انهيار الدولة السعدية، ولم تفلح الزوايا والحضرات الصوفية في سد النقص ودرء الخلل رغم ما لها من جليل دور وواسع إشعاع، وهو ما تسنى لي سبر غوره بعد رحلتي الأولى الشمالية. كثيراً ما سمعت يحي يقول في مجلس والدي إن تجارة الملح والتمر لم تعد مجدية، وإن على سكان هذه الحواضر الصحراوية أن يتداركوا أمورهم قبل أن تنقلب أحوالهم كلية وينهار شأنهم تماماً. كان يحي يتباهى بماضي مدينته وأسواقها العامرة التي كانا تجبى لها خيرات الدنيا شمالاً وجنوباً، ويحدثنا أن سوق الملح في المدينة كان فسيحاً واسعاً تفد إليه كل أسبوع قوافل من «سبخة الجل» حيث منجم تلك المادة الثمينة التي يدفع فيها سكان بلاد السودان ذهبهم وزرعهم، ذكر لنا يحي أن الملح في بعض المراحل زاد وزنه في المعاوضة على الذهب. لم يكن من السهل علي إدراك هذه الأهمية الكبرى للملح، وقد عرفت من بعد من قراءاتي لابن بطوطة وابن خلدون وشهادات الرحالة والسفراء الذين قابلتهم في رحلاتي الشمالية والجنوبية أن الملح كان إلى عهد قريب أهم سلعة في تجارة البحور والصحاري، فكم من حرب اندلعت بسببه بين ملوك الإفرنج الذين يحتفظون بممالح خاصة بهم ويدخل الملح في أعيادهم وأفراحهم ويستقبلون به ضيوفهم، كما أن

المصريين القدماء استعملوه في تحنيط أمواتهم من عظماء حكامهم، أما ملوك غانا الأقربون لإقليمنا فقد حرصوا أشد الحرص على الوصول إلى ممالح الشمال، ولم يكن ملوك صنهاجة من المرابطين ليحكموا هذه البلاد الفسيحة الممتدة من أقاصي أرض السودان إلى حواضر الأندلس لو لم يستولوا على معادن الملح ومسالك تجارته.

لم يكن والدي يهتم كثيراً لحديث صديقه يحي عن تجارة الملح، ولم يكن يهمه فيه إلا ما يعرض عليه من نوازل فقهية تتعلق أحياناً بهذه المادة التي لا يستطيبها حتى في طعامه وإن كان يقر أنها ضرورية في الصيف لأسباب صحية كما ذكر «أبقراط» في ألغازه التي نظمها أحد شيوخ ولاتة الأقدمين.

أما جليس أبي الآخر عبد الرحيم «المجذوب» فكان طويل القامة حاد النظر واسع العينين بلحية صغيرة مهذبة ورأس حليق... ولم يكن على عكس يحي، يتحدث في شؤون المال والتجارة والسفر، لم يغادر قط شنقيط في حياته، وكان يتطير من غياب مئذنة الجامع العتيق عن بصره فلا يخرج حتى لأطلال قرية «آبير» القريبة التي يعتقد سكان شنقيط أنها موطنهم الأصلي، وكانت في السابق حسب زعمهم تسكنها أربعون قبيلة وفيها المساجد العامرة والأسواق الزاخرة بشتى البضائع. ومع أن عبد الرحيم درس العلوم الشرعية على جدي ومن هنا صاحب والدي، إلا أنه لم يكن يخوض في العلوم التي يخوض فيها الشناقطة في حلقات

الدرس والأنس، بل يدعي أن له علوماً باطنية خاصة لا يظهرها لغير أهلها أخذها عن «الشاب الشاطر» في خلواته معه تحت جذوع النخلة التي كان يقيم تحتها أيام إقامته بالمدينة قبل اختفائه الغريب الذي لم يسمع عنه أحد بعدها.

كان سكان شنقيط ممن أدركتهم يحجمون عن الحديث عن الشاب الشاطر، ولا يذكره إلا بعض العوام الذين يحكون عنه قصصاً أقرب للخيال والخرافة.. كلما سألت أبي عنه غير الموضوع أو خلد إلى الصمت، وكذاك كان شأن شيخي ابن بلعمش.. وحده عبد الرحيم يذكره كثيراً لكنه يتكتم على كل ما سمعه منه ويقول: إن الوقت لم يحن لإظهار العلوم الباطنية التي أخذ عنه.. ولا أدري هل كان أبي في أعماق نفسه يصدق حديث صديقه المجذوب أم ينكره، لكنه في كل الأحوال كان يستلطف جلساته ويطرب لإنشاده للشعر حتى ولو كان لا يستسيغ الشعر الذي ينظمه، وهو في مجمله معارضات غير متقنة لشعر ابن الفارض الذي كان يحفظ جله.

كثيراً ما سمعت والدي وصديقه المجذوب يتحاوران في موضوعات العقيدة وما يترتب عليها من وثوق إيمان المكلف.. كان أبي فقيهاً متكلماً أشعري العقيدة يرى أن الإيمان نطق باللسان وشعائر تقام وفق سَنَن الجماعة في العبادة والسلوك، فالدين كما يراه انقياد وطاعة والتزام، لا يحتاج للتحقق عن ما في الصدور بل هو سلوك ظاهر يشهد لما في القلب، ولم يكلف

الشارع العبد بدقائق الاعتقاد وجزئيات التأويل ولم يكلفه شططاً ولا رهقاً بل تعبده بمحاسن الأخلاق ومألوف الأعراف، وحرم عليه قبائح الأفعال ومضار السلوك، ولذا فالدين الحق كما يرى والدي هو الامتثال لما درجت عليه جماعة المدينة من أعراف مأثورة قامت على صريح الشرع وصحيحه. أما عبد الرحيم فكان يسمي مذهب الوالد في الاعتقاد بإيمان العجائز لا تهويناً من شأنه فقد طلبه الخليفة عمر ورأى فيه الطريق الآمن، لكنه غالباً ما يكرر أنه إيمان تنقصه حرارة الشوق وجذوة المحبة ولذة الحيرة على لغة أهل التصوف التي كان يتقنها ولا ندري من أين اكتسبها، فقد كانت كتب ابن عربي الحاتمي التي يستشهد بها معدومة في مكتبات شنقيط.. كان عبد الرحيم يجيب كل من سأله عن مصادر آرائه بالإحالة على «الشاب الشاطر» وهي حجة كافية تسكت خصومه الذين لا يجرؤ أحدهم على التعرض لهذا الشريف الفاسي الذي يذكرون أنه قدم إلى مدينتهم فجأة وأقام بينهم فترة دون أن يخالطهم وغادرهم بالطريقة ذاتها.

يذكر المجذوب أن الشريف الشاطر أفضى بأسراره الباطنية لعدد قليل من أتباعه، لا يعرف بعضهم بعضاً، وهم منتشرون في أصقاع الصحراء، وسيمتد صيتهم إلى بقاع الدنيا..

لم يكن والدي يهتم بهذا الحديث وإن كان لا يعترض عليه، وله عبارة مألوفة غالباً ما يكتفي بها وهي «ليست هذه الأقوال مما يجب الإيمان به ويحاسب على إنكاره».

لم نكن نحن الأطفال نفهم شيئاً من كلام المجذوب ولا نفقه مراميه البعيدة، لكننا نستلطف هذا النمط الغريب من الرجال الذي لا بشبه غيره من القوم في بلاد يكاد يكون فيها الناس نسخة واحدة لا يتمايزون إلا في التفاصيل غير الجوهرية. يبدأ الشكل المميز للمجذوب من ثيابه التي تختلف عن الجبة التقليدية البسيطة التي يلبسها رجال المدينة، كان يشدنا إليه جِلبابه الأحمر الطويل الذي لا نعرف من أي بلاد جلبه ولا ندري هل عنده ثوب واحد لا يغيره البتة ومن ثم يغدو السؤال هو كيف يحافظ على نظافته طوال السنة وكيف لا تبليه الأيام والليالي أو أن عنده جلابيب عديدة من النوع واللون نفسه يراوح بينها.. كان ذلك من أسراره العجيبة التي لم أجد لها جواباً، بيد أن كل كان ما يهمنا نحن الأطفال هو ما يستخرجه من جيبه الواسع من تمور مجففة يهديها لنا عندما نصادف خروجه إلى المسجد أو عودته منه.. كنّا في ظلام الليل نعرف المجذوب من عطره الفواح الذي يدعي أنه يأتيه من فاس ولا مثيل له في كل حواضر الصحراء وبلاد السودان. لم يتزوج عبد الرحمن في حياته، أو على الأصح لا نعرف له زوجة في المدينة، وإن كان يزعم أنه له زوجة جنية يلتقي بها في أطلال آبير عند الهزيع الأخير من الليل، وطالما حذّر الأطفال من المرور بتلك الأطلال التي يسكنها الجن بأصابعهم الأربعة وقاماتهم الفارعة وأصواتهم الكريهة..

لم أذكر لك من جلساء أبي إلا صديقيه يحي وعَبد الرحيم،

ولم يكونا الوحيدين اللذين يحضران مسامراته، بل هم كثر، لكن لا حاجة للحديث عنهم إنهم نسخ من أبي ويحي، بعضهم يشتغل بالعلم والبعض الآخر بالتجارة.. ولذا لم أحدثك إلا عن عبد الرحيم المجذوب الذي كان نسيج وحده في المدينة.

عندما كنت في السن الرابعة أعطاني أبي لوحاً من الخشب وبعثني إلى خالته العجوز لكي تعلمني حروف الهجاء وسور القرآن الكريم الأولى.. كانت سيدة لطيفة المعشر، سريعة النكتة، لا تتوقف عن المزاح مع أحفادها وأبناء إخوتها وأخواتها الكثر.. لم تكن خالتي آمنة مدرسة محترفة، فلا تستقبل إلا أبناء العائلة الأقربين، فلا تأخذ أجراً على تعليمهم رغم مشقة الجهد الذي تبذل في تعليم الصبيان. بعد أن حفظت السور الأولى من الكتاب العزيز، بعثني والدي إلى القارئ الولاتي كما نسميه في شنقيط وهو شاب قادم من ولاتة يحضر دروس العلم في جامع شنقيط ويتولى في الوقت نفسه تدريس عدد لا بأس به من أطفال المدينة. على يد القارئ الولاتي واسمه الحقيقي هو «عبد الحي» درست أجزاء القرآن الكريم فأكملتها في سن العاشرة، وكان حفلاً مشهوداً ذبحت فيه الذبائح وتلقيت فيه الهدايا ومن أهمها الناقة التي أهداني والدي وقد أطلقت عليها تسمية «ريحانة» على عادة سكان البدو في تسمية إبلهم.

بعد حفظ القرآن الكريم، بدأت مسار الدرس الشنقيطي المألوف بداية من كتب السير والشمائل النبوية تبركا وتأسياً، قبل

أن أدرس معلقات الشعر الجاهلي السبع على والدي، وكان لها وقع كبير لا ينسى في نفسي.. قيل لي أوانها إن هذه القصائد كانت تكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة.. أحببت في معلقة امرئ القيس مغامرات الشاعر الضليل التي كان والدي يكتفي بشرح ما فيه من غامض لغة دون أن يتبسط في المعاني، بل يكرر على مسامع طلبته أن الغرض من تعليم القصيدة هو تقويم اللسان وتهذيب الذائقة وتهيئة طالب العلم لفهم عبارات القرآن.. لا أعرف هل سر استحساني القصيدة آنذاك هو عوالم الفحش والجرأة التي كانت مفقودة بالنسبة لشاب شنقيطي عشريني لا يعرف من حياة المجون واللهو إلا ما يقرأ في كتب الأدب ومرويات تجار القوافل التي تتناقلها الألسن في أوساط ضيقة...

أما قصيدة طرفة فقد بدت لي جميلة السبك، وأعجبني فيها البيت الشهير الذي حفظته من شيوخ القرية قبل أن أتعلّمه في الدرس:

«ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود»

أما قصيدة زهير فقد شدتني إليها حكمها المأثورة، وكان أبي ينبهني إلى أهميتها، وغالباً ما أسمعه يردد بيته الشهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

ولو خالها تخفى على الناس تعلم

وبعد أن أنهيت المعلقات السبع، بعثني أبي فترة قصيرة إلى مدينة «ودان» لاستكمال المتون الأساسية.. ولم تكن تبعد ودان عن شنقيط إلا مسافة أميال تقطعها الجمال في يوم وليلة.. خرجت مع قافلة صغيرة ومررنا بأطلال مدينة «تنيغي» التي قيل لنا أنها كانت آهلة بالسكان والتجارة، تشبه بمصر في العمران والعلم... وتقول الرواية إن فتياتها يحفظن موطأ الإمام مالك وعلماءها يفتون في المذاهب الأربعة.. وقد أصبحت اليوم خراباً إثر فتنة مشؤومة حرقت الأخضر واليابس وشتّتت السكان في أنحاء الصحراء شمالاً وشرقاً وجنوباً..

عندما قدمت إلى ودان سرت مباشرة إلى رواق «العلماء» في الدار التي تسمى دار المغتربين الملاصقة لمسجد المدينة، وهناك تعرفت على عدد من شبان مدينتي وعدد آخر قادم من أقصى البلاد ومن بلاد السودان.. لم تكن الحياة في ودان تختلف كثيراً عن ما ألفته في شنقيط من حيث نمط العيش وشكل العمران ومواسم التجارة وأسواقها، وإن كان سوق الملح أكبر وأكثر رواداً من مثيله في شنقيط كما أن سوق التوابل السودانية أكثر ازدحاماً وأكثر تنوعاً.. ما يميز ودان هو بالإضافة إلى ذلك كثرة التجار المغتربين من غير سكان المدينة وأغلبهم من ولاتة وتنبكتو يتبادلون الحديث بلغة «آزير» وهي لغة سونغانية تسللت إليها عبارات كثيرة من الصنهاجية والعربية ويتقنها عدد كبير من سكان المدينة.. كان التجار المغتربون يبقون في رحبة المدينة الكبرى في الجنوب

الشرقي من المدينة وهي الرحبة التي يسميها الوادانيون بالرحبة الكبيرة وهي أوسع وأهم من رحاب شنقيط الصغيرة، يؤمها سكان البلدة لتدبير شؤونهم وتنظيم أفراحهم وربما ضربوا فيها طبلهم الشهير «الرزام» في أوقات الحروب وعظائم الأحداث...

كنت أحضر حلقات الدرس صباحاً في مجلس شيخي «سيدي احمد أيد القاسم» الذي درست عليه مختصر خليل وهو الحجة فيه بلا منازع وله فيه سند عالٍ يرجع إلى شارح المختصر الحطاب، وأحرص على التسكع في ردهات السوق ما بعد صلاة العصر، وقد توثقت صلتي ببعض تجار السوق أذكر منهم «أيدة نافع» الذي كان يقيم مع أسرته في منزل صغير ملاصق لمتجره.. كان «أيدة نافع» يعاملني مثل ابنه وكنت أساعده في تدوين صفقاته وكتابة رسائله، لكنه عندما يتحدث مع تجار المدينة بلغة آزير لا أفهم له شيئاً.. لم تستطع «خديجة» بنت التاجر الوداني أن تساعدني في تعلم هذه اللغة، وكنت أسترق النظر إليها فرمتني بسهام حبها وكنت غراً حديث السن، أتعلَّم قرض الشعر وأتخيل نفسي عمر بن أبي ربيعة على كميته، والحال أني كنت مغترباً ذليلاً لا أستثير إعجاب أحد.. ولذا عندما فاتحت خديجة بما أكن لها من هوى أطلقت علي بلغة آزير صفة «ادوارن» التي تعني الأغراب الذين لا يختلط بهم.. وكانت العبارة جارحة لكبريائي.. لم أدرك أوانها أن قصص العشق والوله التي قرأت في كتب الأدب التي كنت مقبلاً عليها في تلك الفترة هي مجرد قصص

تقرأ لا تعاش، فالوسط الذي ولدت فيه وفيه عشت سنوات عمري الأولى لا مكان فيه لمعاني القرب والوصال وإنما الحب فيه لا يكون إلا حجاباً وبعداً وهجراناً إلى حد أن المحبوب نفسه لا يذكر اسمه بل لا ترد أوصافه، إنه ربع يقتفى وليل طويل يشكى ووجه لا قسمات له.. والغريب في ذلك كله أن أهل هذه الأمصار على عكس مدن الشمال لا فصل فيها بين الرجال والنساء ولا حجاب مضروب على المرأة، وكأن الحجاب المضروب بين الرجل والمرأة هو حجاب من الخيال يعبر عنه الشعراء بلغتهم ويحفظه الناس في سلوكهم.

لم أمكث كثيراً في ودان رغم نصيحة شيخي ابن بلعمش الذي أقام طويلاً في تلك المدينة ودرس على علمائها الأفذاذ واستطاب العيش فيها مدة من الزمان.. والحقيقة أن ودان التي عاش فيها شيخي ليست هي التي أدركت، فقد أصابها ما أصاب شنقيط من كساد وتراجع إثر الفتنة الدامية التي اندلعت فيها قبل سنين، وكان من آثارها خروج عدد كبير من سكانها من المدينة رحلوا جنوباً وشرقاً كما قيل لي. وهكذا عدت إلى شنقيط وواصلت التعلم في حلقات الدرس التي يعقدها ابن بلعمش وهناك ربطتني صداقات قوية مع عدد من طلبة العلم الوافدين للتعلم وفي مقدمتهم خليلي وعيبة سري «محمد بن أبي بكر بن الهاشم» الذي قدم من ولاتة وهو في الأصل من شنقيط وقد رحل منها والده قبل مولده، فكنا نطلق عليها تسمية «الولاتي» وإن كان

يحتج علينا دوماً أنه شنقيطي أيضاً مثلنا. كان صديقي «الولاتي» نابهاً حاد الذهن وقوي الذاكرة، وشديد الاهتمام بعلم الكلام الذي كان شيخنا ابن بلعمش فريد دهره فيه، والحال أن شيخنا كثيراً ما ينوبه في التدريس ويكل إليه الفتوى رغم حداثة سنة، وربما بعثه في بعض المهمات إلى المدن المجاورة مثل وادان وأوجفت وأطار.

كان صديقي الولاتي يصحبني إلى حلقات المسامرة في بيت والدي التي وجدتها لم تتغير بعد رحلتي إلى ودان، لم يكن يتكلم كثيراً، بل يكتفي بتدوين ما يسمع من فوائد في المجلس وتعجبه على الأخص الألغاز النحوية والحكم الشعرية، وربما استلطف بعض مرويات «المجذوب» وإن خالفه في تأويلاته الباطنية للآيات القرآنية التي تصل أحياناً حد الغرابة.

كان من عادة سكان شنقيط توقيف الدرس في المسجد في شهر رمضان فهو العطلة السنوية الوحيدة لطلبة العلم، ففيه يرجع الوافدون إلى مدنهم إذا كانت قريبة، أما القادمون من الأصقاع البعيدة فلا يغادرون المدينة قبل استكمال طلبهم وهو ما يمتد أحياناً لعشرين سنة كاملة. استدعاني والدي في منتصف شعبان وقال لي: إنك لم تعد صغيراً فلك من العمر ثماني عشرة سنة ولقد أردتك أن ترحل إلى بلاد القبلة حيث جدك لتتعرف عليه وتسمع منه بعض العلوم، ولذا ستغادر بعد يومين مع القافلة المتجهة إلى «آوكار» ومنها تدبر شأنك فأحياء البدو كثيرة والمنطقة

آهلة بالسكان وجدك لا نعرف حالياً في أي مكان لكنه لن يكون بعيداً من آبار إكيدي. كان الوقت شتاء، ولذا لم يكن السفر مرهقاً، وكانت الرفقة مناسبة: تجار يجلبون التمر إلى أحياء البدو يعرفهم أبي وبعضهم من تلامذته السابقين.

أول مشهد استوقفني كان عندما غابت الجبال عن عينيّ وبدت الرمال الممتدة الكثيفة التي لا انقطاع لها.. بدت لي حبات الرمل الحمراء مثل ذرات الذهب المتناثرة وكنت شديد الفرح بها مما أثار استغراب رفقائي الذين تعودوا على الكثبان الرملية.. وجدت في الصحراء عالماً مفتوحاً زاخراً بالدلالة وإن كان صامتاً، وحدهم الشعراء بإمكانهم الإنصات لأصوات الصحراء الخافتة، وكنت قد بدأت قرض الشعر، بل إن صديق أبي المجذوب اعتبر أن شعري بلغ مرحلة النضج وأصبح متميزاً عن الأنظام الشعرية المألوفة عند الشناقطة.. كنت في قرارة نفسي أفرح لهذا الحكم لكني لم أكن متأكداً من صدقه.

عندما وصلت إلى آوكار بحث لي «عبد السميع» عميد القافلة عن راحلة ودليل يوصلني إلى مخيم جدي وقد بلغنا من اقتفاء الأخبار أنه بموضع يسمى «أغورط» وليس في منطقة إكيدي.. قال لنا رجال من البدو ملثمون التقيناهم في الطريق أن البلاد في ضيق شديد ومحنة قاتمة إثر اندلاع الحرب الضروس ما بين قبائل الزوايا وقبائل بني حسان، وقد اختار جدي الابتعاد عن معترك الحرب التي لا تزال مشتعلة رغم هزائم الزوايا الذين يقودهم

رجل من تحالف تاشمشة يسمى ناصر الدين. كنت قد سمعت في شنقيط عن هذا الرجل الذي يوسم بالعلم والصلاح ويتحدث في أمور الغيب، بل إني سمعت شيخي بن بلعمش يتحدث عنه على لغة الإنكار، شأنه شأن الرجل الذي ظهر في مدينة أطار وتسمى بالإمام المجذوب وادعى لقاء الخضر وزعم أن الحضرمي المرادي زاره في نومه وأطلعه على قبره وأملى عليه إملاءات جمعها في كتاب سماه بكتاب (**المنة**) كله أذكار ووعائظ وإخبارات بالمغيبات وبشارة بظهور المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن اشتد فيها الجور. كتب شيخي إلى أهل أطار يحذرهم من أمر المجذوب معتبراً أن العدل المطلق لا ينال في الدنيا فالله وحده اختص بهذه الصفة العليا، أما الفتنة فهي أشد من الجور لما تفضي إليه من دماء وظلم، وليس من شأن عالم الدين منازعة أهل الشوكة في الحكم بل حسبه النصيحة وكفاه صيانة الجماعة من التفكك والانقسام فهي وعاء الدين ومظلته وضمان وجوده واستمراره.

عندما قدمت بعد أسبوعين إلى مخيم جدي بأغورط كان الوقت مساء وكانت الليلة هي الثانية من ليالي رمضان الأبرك، وجدت جدي وجماعته يصلون التراويح في مصلى مسجى بجذوع الشجر، ما كان أبعده من جامع شنقيط العتيق بهيبته وعظمته، بيد أنني أحسست بنفس من ذلك العبق الشنقيطي في وجوه الناس وطريقة صلاتهم ونمط أحيائهم ليالي الشهر الفضيل..

استقبلني جدي وأعمامي بترحاب كبير، وهم الذين لم يروني من قبل، وسألوني مطولاً عن أوضاع شنقيط وأحوال أهلها وبالأخص أبي وأبناء عمومتهم.. كان جدي قد تقدم في العمر لكنه لا يزال خفيف الحركة حاد الذهن صحيح الجسم، وكان يتولى بنفسه الإشراف على المخيم الصغير الذي يقيم فيه وهو عموماً خيام أبنائه ورعاته وطلبة العلم الذين يرافقونه حيث حل ورحل. ناداني جدي: «كيف حالك يا ابن رازكة»، وكانت تلك المرة الأولى التي يطلق علي هذا الاسم الذي به عرفت في كل أصقاع البلاد، ولقد اختار أن ينسبني إلى أمي على سَنَن أهل تلك المنطقة في الحياء والإحجام عن ذكر اسم الابن الأكبر، وهي عادة لم نألفها في شنقيط، أو لعله اختار لي هذا الاسم مزاحاً وتقريباً.

عندما قدمت إلى أغورط كان الحديث كله منصباً على معارك الحرب التي اشتهرت باسم «حرب شرببه» وكان عمي سيدي الحسن من أبطالها بل هو السبب المباشر لاندلاعها لكونه جابي الزكاة الذي عينه الإمام ناصر الدين وعندما منعه بعض أتباع القائد المغفري هدي بن أحمد دمان المقدار المقرر لزكاته أعلن الإمام الحرب على أشياعه.

لم أقابل عمي سيدي الحسن الذي كان في الحرب ومن أقرب الناس إلى ناصر الدين، وعندما سألت جدي عن هذا الرجل الذي انتشر صيته، قال لي إنه قابله في بداية أمره بعد أن

كثر الكلام حوله واختلف الناس فيه أشد الاختلاف.. كتب له في شأنه الحاج عبد الله وهو فَقِيه ضليع ومتكلم متمكن من أصدقاء شيخي ابن بلعمش وله معه مراسلات كثيرة.. وكان الحاج عبد الله من أكثر الناس نقمة على ناصر الدين وإعراضاً عنه ولم يكن يقر بإمامته ومشروعية جهاده ويرى أن الشروط لم تتحقق لإباحة هذا الجهاد، وقد انضم إليه من كبراء قومه من تاشمشة الفاضل بن باب أحمد وبارك الله بن بزيد.. ويقول جدي إنه عندما قابل ناصر الدين لمس فيه آيات الصلاح والخير وأجاب الذين سألوه عنه أنه وجد الناس ما بين من أفرط فيه ومن فرط والمقسطون في شأنه قلة.

قال لي جدي أن ما حز في نفسه هو أن الزوايا والمغافرة الذين اجتمعوا على نشر الدين في ممالك السودان ووقفوا ضد تجارة الرقيق التي يشرف عليها الفرنسيس في آكميني أو «أندر» حسب التسمية الشائعة في أيامنا، قد انشقت صفوفهم واقتتلوا ولم يكن يرى من المستبعد أن تجار الإفرنج الخبثاء هم الذين مشوا بالوشاية بينهم بعد أن تضررت أحوالهم نتيجة لما قدم إليها أمراء ناصر الدين الذين تسموا بالتوابين من إيقاف بيع الرقيق المتجه إلى القارة الهندية الجديدة.

لم يكن جدي يرى كفر قادة المغافرة بل لم يكن متحمساً للحرب نفسها، لكنه كان يجل ناصر الدين ويرى أن قتلى جيشه من الشهداء تنطبق عليهم أحكام شهداء المعركة.. وقد حزن أشد

الحزن لمقتل الإمام ناصر الدين في معركة «ترتلاس» ومعه أعوانه الثلاثة المقربون.. وصلنا الخير بعد يومين من المعركة، كما كنت حاضراً عندما نعي عمي سيدي الحسن لجدي وكان قد استشهد في معركة بالكثيب الذي أصبح يعرف بكثيب القضاة، وقتل معه علماء أجلاء بعضهم من تلامذة جدي من الشمشويين.. لم يظهر جدي الحزن على عمي وكان شاباً وسيماً مشاركاً في مختلف العلوم وكان يحتسبه عند الله شهيداً ويفخر ببطولته وثباته في الحرب.

كان أكثر ما يقلق جدي هو ما بلغه من انقلاب الحال في بلاد فوتة والسنغان وجولف بعد هزيمة جيش ناصر الدين، رجع الملوك المقربون من شركة الفرنسيس وعادت تجارة الرقيق إلى حالها، بل بيع عشرات من التوابين من جيش ناصر الدين وراء البحار من زوايا صنهاجيين وسودان، بلغنا أنهم قيدوا في سلاسل في سفينة عبرت بهم أمواج البحر إلى الهند الجديدة.. سمعت هذه القصة من الفقيه المين الذي قدم إلى جدي يطلب عونه في إقناع قادة الزوايا في التخلي عن الحرب بعد أن بدت نذر الهزيمة جلية.. كان شيوخ الزوايا قد اختاروا الفقيه المين قائداً لهم فأعلن سعيه للتوصل إلى مصالحة ترضي الطرفين وقد وافقه أمير المغافرة هدي في هذا المسعى وأعرب له عن استعداده إيقاف القتال والركون إلى السلم، إلا أن شيوخ الزوايا رفضوا مقترح الفقيه المين فاعتزل الحرب ونأى بنفسه عن المواجهة..

عندما غادرت أرض القبلة بعد سنوت ست قضيتها إلى جانب جدي وأعمامي، كانت الحرب قد توقفت فعلاً في تلك الأنحاء وإن استمرت شرقاً كما سمعنا من الثقات، وقد رأى جدي أن أعود إلى شنقيط حتى تلتئم الجروح وتصفو النفوس، وكان يتوقع أن المصالحة الحقيقية تقتضي وقتاً طويلاً وجهداً جهيداً... قال لي جدي إنه لم يعد يقوى على السفر، ولذا ليس بإمكانه الرجوع إلى موطنه الأصلي، متعللاً بأن الحب للأصل أما المواطن فقد تطرأ.. والحق أني وجدته قد ألف الحياة في مراتع البدو، وألف الترحال والتنقل، بل أصبح له قطيع كامل من البقر الذي لم نعهده في شنقيط وكان يستطيب حليبه يقدمه لي في كل صباح ومساء..

استغرقت رحلة العودة أسبوعين مثل رحلتي السابقة.. عندما دخلت شنقيط ضحى كانت حلقة الدرس قد انعقدت في المسجد فقدمتها حتى على السلام على والدي ووالدتي.. ما إن توقفت الحلقة عند أذان الظهر حتى استدعاني شيخي ابن بلعمش ليسألني عن أخبار أستاذه جدي، بيد أن الحديث تركز حول الحرب التي حدثت في بلاد القبلة ووصل صداها بقوة إلى منطقة إدرار. وجدت ابن بلعمش ساخطاً ممتعضاً، وقد اعتبر أن هذه الحرب مصيبة عظمى داهمت تلك البلاد التي كان يأمل أن تكون ملجأ من الخراب الذي مَس مدن الشمال، بفضل ما اجتمع لها من خصب في الأرض وكثرة ماشية ومياه عذبة سهلة الاستخراج.. وفيها العلماء الأعلام الذين يؤمل فيهم تجديد أمر الدين ونشر

علومه، فكيف دخلوا في الفتن وغاب عنهم أن شأن الفقيه ليس طلب الإمامة ومنازعة أهل الشوكة وإنما تعلم الدين وتعليمه وإقامة شرائعه في خاصة سلوك الفرد وأمر الجماعة، وإن صلح الأفراد وصلُحت الجماعة انتفت الحاجة إلى إمامة الحكم والغلبة، وقد أدركنا جماعة شنقيط على هذا السنن تدبر أمرها على معيار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر.. فإذا اشرأبت عين الفقيه إلى السياسة فسد الدين وفسدت السياسة.. وقد ختم ابن بلعمش كلامه بالقول أن أئمة الأشاعرة وهم أهل السنة والجماعة قد أجمعوا على أن أمور الإمامة ليست من أصول الدين وقطعياته بل هي من فروع الشريعة وظنياتها التي تلتبس دوماً بحظوظ النفس وأهوائها، وقد قال أبو حامد: إن المدار في أمر السياسة الشرعية هو الشوكة والغلبة اتقاء الفتنة والفوضى، فمن قام بهذا العبء وجب له الانقياد ولم ينط به أمر العدل لأن العدل في الشريعة تكليف عام للجماعة تتقاسمه وتتآزر من أجله وليس منوطاً بيد حاكم قد يوفقه الله لرعاية عباده وإقامة العدل فيهم وقد لا يوفقه لهذا الفضل.

كان أبي يجادل ابن بلعمش بالقول أن أحوال البلاد تغيرت، فلم تعد الحواضر في أمن ولا تجارتها في مأمن من اللصوص وقطاع الطرق الذين امتلأت بهم الأرض وما عاد من المتاح درؤهم بالمداراة المألوفة كما أن حراس القوافل أصبحوا عاجزين عن أداء المنوط بهم من مهمات، أما الخطر الأكبر، يضيف أبي،

فهو حروب القبائل والبطون التي قضت على المدن العتيقة وانتقلت إلى البوادي، ولذا تعين على الزوايا أن يختاروا من بينهم من يسوسهم بأحكام الشرع والعدل وإلا ضاعت البلاد وضاع العباد..

حضرت النقاش ذاته في أوقات متقاربة وشارك فيه جمع كبير من أعيان المدينة وزوارها من المدن المجاورة والأنحاء البعيدة... لم أكن معنياً مباشرة بالموضوع، فمنطق الأعراف والعادات يحصر الجدل في الأمور العامة في كبار السن الذين نطلق عليهم في شنقيط تسمية «جماعة المسجد» وهي المرادف لما يسميه الفقهاء بأهل الحل والعقد.. كنت قد استأنفت طلب العلم على شيخي ابن بلعمش وتجددت أواصر الوصل بصديقي الولاتي الذي وجدته على حاله من الجد والاجتهاد والعزوف عن اللهو واللغو... كان اللهو الوحيد الذي يستسيغه هو سهرة السباق الشعري التي يقيمها الطلبة بعد الفراغ من مراجعة دروسهم على ضوء النار ليلاً.. يبدأ السباق بأن ينشد أحد الطلبة بيت شعر فينشد الذي يليه بيتاً يبدأ بالحرف الأخير في البيت السابق وهكذا دواليك.. كنت ماهراً في السباق وغالباً ما أفوز فيه وعندما يعوزني الجواب أرتجل البيت في الروي المطلوب وأنسبه إلى الشعراء السابقين، لكني كنت أكشف عن حيلتي لأصحابي بعد نهاية السباق... كان الولاتي يجمع شعري ويستطيبه بما فيه الأبيات المرتجلة التي يطلق عليها مزاحاً تسمية «المسروقات» على منوال «المعلقات».

كانت الأيام تمضي دون طارئ يستحق الذكر.. قد تعودنا في شنقيط على زمن بطيء لا حدث فيه ولا تحول.. الناس يستيقظون في الوقت نفسه على أذان صلاة الفجر، ويخرجون في الوقت نفسه من كل يوم إلى مزارعهم ضحى ويقصدون الصلوات وحلقات الدرس في الأوقات نفسها، ويأكلون وينامون في زمن محدد لا يتغير.. كانت اللحظات الوحيدة التي يصبح للزمن فيها معنى هي عندما يموت شخص من أعيان المدينة أو يزورها زائر ذو شأن، وهي لحظات تمضي سراعاً ولا تترك إلا أثراً محدوداً..

من تلك اللحظات المؤلمة التي مرت بنا وفاة صديق والدي «المجذوب».. حدثت الوفاة فجأة أو على الأصح شبه فجأة.. غاب ليلة واحدة عن جلسة المسامرة، وعندما سألت عنه قيل لي أنه مريض.. ذهبت مع والدي في الصباح لزيارته وكان يوم جمعة شديد البرد.. وجدناه طريح الفراش ومعه فتاة سوداء من أصول بنباربة تغني له بكلمات لا ندري معناها.. كان يهتز طرباً ويقول لو أنكم فهمتم معنى هذه الكلمات وما كنّا نعرف أنه يتكلم تلك اللغة السودانية... وفجأة بدأ يغني بصوت خافت جميل حتى انقطعت أنفاسه.. قال لي والدي أنه أوصاه أن يدفن تحت ظل نخلة بعيدة عن المدينة وكان يقول إن الشاب الشاطر أوصاه بذلك وقال في حقه الكلمة المأثورة في أبي ذَر الغفاري: يموت وحده ويبعث وحده... حزنت المدينة لرحيل الشخص الوحيد الذي كان يضفي بعض الطرافة والتميز على المدينة الوقور

الهادئة... أصبحت من بعده السهرات الليلية مملة تعسة، ولم أعد أتحمل الجلوس فيها، لم أعد أستسيغ الحديث المعاد حول أوقات الصلاة ووضع النخيل والإبل والأنساب وحروب القبائل.. وهكذا عكفت على كتب الأدب أقضي في مطالعتها جل وقتي الفارغ حتى صرت أحفظ جل ديوان العرب.. وعلى عكس لداتي من أهل هذه البلاد لم أكتف بالشعر الجاهلي ولم أره قمة الشعر، بل آثرت عليه الشعر العباسي وأحببت على الأخص أبا تمام والمتنبي قبل أن أستكشف الشعر الأندلسي أيام إقامتي بمكناسة وبلاد السوس..

كنت قد استكملت جل العلوم التي تدرس في مسجد شنقيط من فقه ولغة ونحو وعلم كلام وغيرها من المتون المقررة في تلك البلاد، ووصلت سناً تؤهلني للزواج، فتزوجت على غرار ما يتزوج الشناقطة مع بنت عمي «حورية» التي لم تكن غريبة علي، فكثيراً ما قصدت دار أهلها وجلست إلى أبيها وإن كنت لم أقابلها إلا لماماً في فناء الدار أو في الطريق إليها.. كانت صغيرة في السن لم تتجاوز الثانية عشرة وإن كانت قد حفظت القرآن الكريم وأكملت درس السيرة وأوليات النحو والفقه على والدها.. لم يكن هذا الزواج تغيراً نوعياً لا في حياتي ولا في حياتها حتى على المستوى المكاني.. فقد تعودت أن أزور بيتها قبل الزواج للسلام على ابن عم والدي وذلك ما استمر بعد الزواج جرياً على عادة أهل شنقيط في إقامة الزوج في بيت أهل زوجته في السنوات

الأولى من زواجهما على أن لا يلتقيها إلا ليلاً وعلى أن يخرج من البيت عند صلاة الفجر... لقد تبدو لك تلك العادة غريبة ولم أدرك وجه غرابتها إلا بعد رحلاتي شمالاً، لكني بعد طول تأمل أدركت أن الأمر لا يخلو من حكمة بالنظر إلى عمر الزوجة الذي لا يؤهلها لتولي تكاليف ومشاق بيت الزوجية وبالنظر إلى محدودية وضيق دائرة الحركة في مدينة صغيرة أغلب أفرادها من الأقارب المتقاربين...على عادة أهل شنقيط سألتني صواحب زوجتي أن أعبر عن مشاعري بهذه المناسبة السعيدة، فأجبت بلغة الشعر:

الا أني خليلك يا حويرى

ومبسمك المبرد للغليل

فقولي للنحاة حماي عنه

دعوا ما بين المبرد والخليل

انتشرت الأبيات على نطاق واسع، وفرح بها طلبة العلم لما حوته من نكت بديعة وإن كانت في أصلها مجرد مزاح وهزل...

كان الحدث الأكبر دون شك الذي عرفته شنقيط في تلك الفترة هي زيارة السلطان إسماعيل الشريف إلى المنطقة.. لم يدخل المولى إسماعيل شنقيط وإنما اكتفى بإرسال رسله إليها طالباً لقاء علمائها وأعيانها، وكان من بينهم والدي «محم» وشيخي «بن بلعمش» وعدد آخر من وجوه المدينة وأعلامها الذين

التقوا به في مشارف «تيرس».. لا زلت أذكر ذلك اليوم الذي خرج فيه الركب الشنقيطي في موكب مهيب قاصداً السلطان، وكنت مرافقاً للوفد أسير في ذيل القافلة مع غيري من شباب المدينة..

عندما اقترب الركب من مخيم السلطان كان الوقت ليلاً، وقد بدت لنا الأنوار الساطعة من بعيد وأصوات الطبول مدوية.. وما أن وصلنا إلى مكان إقامة المولى إسماعيل حتى انطلق صوت البارود من بنادق الجيش في تحية للوفد، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها البنادق معلقة على رقاب الجند الذي انتشر في صفوف دائرية واسعة.. لم يكن وفدنا هو الوحيد الذي قدم لتحية السلطان الذي استقبل طيلة أيام إقامته وفوداً شتى من مختلف مدن وأنحاء البلاد، من بينهم بعض القادة المغافرة في مقدمتهم بكار بن علي أحد أبطال حرب شرببه وزعماء بني حسان وهنون بن بهدل أحد قادة أولاد امبارك وقد أصبح من بعد أحد أمرائهم العظام.. أخبرنا شيخ من شيوخ تيشيت رافق السلطان في رحلته من تنبكتو التي مر فيها بمدينته أن المولى إسماعيل سيتزوج في تلك الليلة بنت القائد المغفري بكار وسيقام بالمناسبة حفل كبير تنشد فيه الأشعار ويغني المغنون ويرقص الأحباش، ولذا لن يتمكن الوفد من السلام على السلطان في تلك الليلة البهيجة.. وهكذا ضرب الشناقطة خيامهم في موقع بعيد من إقامة السلطان وخلدوا إلى النوم بعد صلاة العشاء مباشرة، في حين دلفت أنا وبعض من أصحابي إلى الخيام الفسيحة التي امتلأت بالناس من

كل لون وجنس.. لم أشاهد في حياتي مثل هذه الجموع الكثيفة، بعضها يلبس جلابيب فاسية ومراكشية مزركشة، والبعض الآخر في أقمصة سودانية نظيفة قيل لي إنهم من أحفاد الرماة المغاربة من الجيش الذي صحب السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي إلى بلاد السودان أيام دولة السونغاي وقد بقيت حامية من هذا الجيش في تلك البلاد لضمان ولائها للدولة السعدية قبل أن ينفرط عقدها... وقد اختلط أبناء الرماة بالسكان المحليين وحافظوا على نفوذهم ومكانتهم.. ولقد أراد السلطان مولاي إسماعيل كما أخبرني أحد أعوانه المقربين أن يجدد الوصل ببلاد السودان جرياً على سنة سلفه السعدي الذي كان أدرك أن المغرب الأقصى لم يبق له بعد ضياع الأندلس واستيلاء الترك على تلمسان والجزائر إلا أن يتجه جنوباً لفك الطوق المضروب على بلاده بما أهله للوقوف ضد الإفرنجة من الإسبان والبرتغاليين الذين وصلوا شأواً بعيداً من القوة إثر سيطرتهم على الهند الجديدة. ولم تكن علاقة السلطان بعرب المعقل جديدة، بل اختار منهم خاصية قواده وجيشه، فكان حضورهم لزواج الأميرة خناثة بنت بكار حدثاً طبيعياً وإن كان مشهوداً وبارزاً.

ولست بقادر على أن أعطيك أيها الحبيب صورة حقيقية عن الحفل وما جرى فيه من مشاهد فرح وطرب، فقد كنت بعيداً عن تلك الأجواء البهيجة، كل ما أقول لك هو أن زيارة السلطان كانت حدثاً فريداً في البلاد.. مشايخ العلم والدين من الزوايا

قدموا إليه يشكون ما أصاب حواضرهم وبواديهم من محن اقتتال وفتنة وفوضى، وقد استقر في أذهانهم أن الأمة تحتاج إلى إمام تبايعه يسوسها بالعدل ويحفظ بيضة الدين ويسند الجماعة، فمن هو أحق بإمام شريف من العترة النبوية الطاهرة لأداء هذه المهمة، وبعضهم من أحفاد أمراء صنهاجة من المرابطين يذهبون إلى أن الحاجة قائمة إلى رباط جديد يحيي الجهاد ويطبق أحكام الشرع ويحارب المنكرات التي عمت بها البلوى.. كان الشيخ سعيد كبير قضاة ودان هو حامل لواء هذه الدعوة، وكان قد غادر مدينته ورحل إلى بلاد الرقيبة شرقاً محاولاً تأسيس رباط جديد يحيي دعوة المرابطين لكن محاولته أخفقت ورباطه تهدم بعد أن غارت عليه قبائل محاربة من المغافرة اتهمته بأنه إنما أراد نقل ملحمة ناصر الدين إلى شرق البلاد..

أما المغافرة الذين قدموا في حلة فاخرة يتقدمهم الأمير بكار بن علي وهنون بن بهدل مع جمع كبير من القادة والفرسان الأشداء فقد وجدوا في السلطان حليفاً لهم، وهو الذي اصطلى بثورات الزوايا التي انتقلت من تربية القلوب وتهذيب السلوك إلى حمل السلاح مغتنمة ما حل بالمغرب الأقصى خصوصاً في بلاد درعة والسوس من دمار وفوضى بعد تحلل دولة السعديين، وهم يَرَوْن أنهم يخوضون نزاعاً من النوع نفسه، فمرادهم هو ضرب يد اللصوص وتأمين هذه البلاد وكبح حروب القبائل، فالسلطان إسماعيل هو سندهم في الأمر خصوصاً أنهم أخواله وقد أصبحوا

البوم أصهاره.. وكان القائد بكار والد زوجته الجديدة «خناثة» هو صوت المغافرة ووسيطهم لدى السلطان...

كلما سمعته هو أن السلطان رحب بالجميع وأكرم وفادة ضيوفه ولم يبن رأياً أو يتخذ موقفاً في نزاع مشكل كان مشغولاً عنه بما هو أهم من تثبيت ملكه وتحرير الثغور التي استولى عليها القشتاليون وصد هجمات الترك الذين لا يخفون أطماعهم في المغرب الأقصى، أما أمر الصحراء فمتروك إلى حين.

الفصل الثاني

عندما بلغت الثلاثين من العمر سعيت على عادة الشناقطة للحج وزيارة القبر الشريف في المدينة المنورة.. الحج بالنسبة لسكان مدينتنا وبقية أهل هذه البلاد ليس مجرد ركن من أركان الدين يؤدونه، بل هو أمور عدة في آن واحد: إنه رحلة علمية لاستكمال الطلب وتوثيق الاطلاع والحصول على الإجازات العلمية واقتناء الكتب والمصنفات.. الحج يعيد صياغة الإنسان في عقله ونظره ويوسع تجاربه ويسمح له بمعرفة الناس والتعرف على الشعوب والقبائل في أرض الله الواسعة، فهو بذا يضاعف العمر ويربي النفس من الغرور والعجب.. هذا إن استطاع مريد الحج أن يبلغ مقصده أو يعود سالماً من رحلته.. فكم من راحل للحج هلك في الطريق، وكم من حاج مات في طريق العودة، وكم من حاج انقطعت به السبل وضاع ذكره إلى الأبد...

عندما ودعت والدي ووالدتي وزوجتي لحظة سفري للحج، كنت أدرك تلك المشاق والمخاطر، ولذا ودعت الأهل وداع

مسافر لا يدري ما الله فاعل به.. كانت ردة فعل والدي ووالدتي غريبة، فمن جهة ابتهجا بقرار الحج فمن يمكنه الوقوف دونه؟ إلا أنهما ككل والدين شفيقين تقدما في السن كانا قلقين من أن لا تتاح لهما إمكانية رؤية ابنهما الذي اعتزم مغامرة السفر إلى الحج..

قبل أن أسافر للحج عزمت على أن أزور كبار الشيوخ من الشناقطة الذين حجوا في السابق ومنهم يحي التاجر صديق والدي، حرصت على أن أسمع منهم كل ما يفيدني في ترتيب سفري ونجاح مهمتي وبعضهم كتب لي رسائل لتسهيل الإقامة في الأقاليم والأنحاء التي سأمر بها، وتعني هذه الرسائل عموماً أسراً تتوارث منذ أزمان طويلة استقبال الحجاج الشناقطة في بلاد السوس وفاس وتونس وطرابلس والقاهرة انتهاء بأرض الحرمين الشريفين..

كان يوم السفر هو الجمعة العاشر من شوال، وقد انطلق الركب الحجي من أمام المسجد العتيق ضحى، وهو مكون من عشرين راحلة من بينها جملان يحملان زاد وأمتعة الحجاج ويقود القافلة اعمر التواتي وهو رجل أربعيني، مفتول العضلات، قوي البنية، مشهود له بالأمانة، يمسك بسجل الرحلة الذي يسميه الشناقطة الزمام مسجلاً فيه كل البضائع الي تحملها القافلة مع بقية الرسائل والودائع والأمانات، ويصحبه مسعود الدليل الواداني الخبير بمطالع النجوم ومدارات الأفلاك وهو من أسرة تتوارث

هذه العلوم وتشتهر بمعرفة أدق مفازات الصحراء وأصعبها.. وقد دفع والدي مقداراً من الفضة البيضاء لقائد القافلة مقابل نفقات سفري، فلم نتعود في بلادنا الدنانير والدراهم الذهبية المعروفة في حواضر المغرب...

لم يكن الركب كله من سكان مدينتنا بل هم الأقل فيه، فأغلب رفقتنا من بوادي وقرى تلك البلاد الذين يعرفون في مجملهم في بلاد الحرمين والشرق كله بالشناقطة نتيجة لقدومهم إلى الحج في الركب الشنقيطي.

ولست بمفيض القول في مشاق الطريق ومحطات السفر في طريق كله صحراء قاحلة وجبال وعرة.. بعد أسبوعين من السير وصلنا بلاد واد نُون وتجاوزنا جبال جزولة، واستقر رأيي مع رفيقي «مسكة» على زيارة الزاوية الناصرية في درعة للتبرك بمشايخها الكمل والاطلاع على ذخائرها العلمية والأخذ من علمائها الجهابذة.. كان «مسكة» قد ألف من قبل هذا المسلك وتعرف على شيوخ الزاوية وأخذ الورد الناصري الشاذلي وأقام مدة طويلة في تمكروت قبل أن يرحل إلى بلادنا التي له أهل وأقارب فيها، لكنه اشتاق إلى الزاوية وأهلها وقرر العودة إليها فصحب ركبنا وتمنى علي مرافقته للالتحاق بركب الحجاج الناصري إلى البلاد المقدسة فذعنت للمقترح واطمأنت نفسي إليه بعد أن امتلأ قلبي حباً وإعجاباً بأهل هذه الطريقة التي استفاض صديقي الجديد مسكة في الحديث عنها..

شدتني إلى مسكة خصاله الفريدة من علم غزير وأخلاق عالية وكرم حاتمي.. حدثني أنه ولد في منطقة توات وعاش فيها سنوات عمره الأولى وتعلم على شيوخها قبل أن يزور مضارب أجداده ويتعرف عليهم ويصبح له شأن كبير بينهم، إلا أن حديثه لم يتوقف عن الزاوية الناصرية وما لها من فضل في إكرام الغريب وكفالة اليتيم والإحسان لابن السبيل وتربية القلوب وإصلاح الناس..

قدمنا إلى تمكروت ضحى في يوم شديد البرد غزير المطر، وهي قرية لا تختلف كثيراً عن بلدتي شنقيط من حيث نمط العمران وطبائع الناس.. تطل تمكروت على وادي درعة وتحيط بها رمال الصحراء وهي كثيرة النخل وبساتينها عامرة بالفواكه والثمار، وإن كان التمر على غرار بلدتنا شنقيط هو المادة الغالبة على الاستعمال والتداول..

دخلنا تمكروت من مدخلها الشرقي وبدأنا بمسجدها العتيق ذي الصومعة الرفيعة التي تشاهد من بعد ونزلنا في الدار المخصصة للضيوف في الزاوية، وكانت مكتظة بالاتباع والمريدين وأصحاب الحاجات، يتقاسمون البيوت القليلة والأفرشة المتواضعة في سكينة ووقار..

أخبرني صديقي «مسكة» أن عشرات البقّار والأغنام تذبح كل يوم إكراماً للضيوف وتقدم مع موائد القمح والشعير والخبز مع التمر والفواكه، إلى حد أن مئات الزائرين من البوادي والقرى

المجاورة تعودوا على التردد على الزاوية من أجل سد الخلة في سنوات القحط والمجاعة التي تتالت على تلك البلاد في الأعوام الأخيرة.

إلا أن الإطعام ليس سوى إحدى مهمات الزاوية التي تولي التعلم والتدريس الجانب الأوفر من جهدها بمدرستها العامرة التي يتجاوز طلبتها الألف وهم من مختلف أصقاع الصحراء والسوس ومنهم الوافدون من حواضر مكناس ومراكش وفاس على الرغم من شيوع العلم فيها وعلو كعب علمائها. أما خزانة الزاوية فحدث ولا حرج عن كنوزها من نوادر الكتب في شتى العلوم الشرعية وعلوم اللغة ودواوين الشعر وكتب الحساب والفلك والطب، وقد أمضيت فيها وقتاً ثميناً ونسخت بعض ذخائرها بخط يدي..

حدثني صديقي «مسكة» أن الزاوية أسسها محمد بن ناصر الذي قدم إلى تمكروت عام 1040 في لحظة ضاعت فيها البلاد من جراء الفتن والحروب واشتد الخوف وانتشرت المجاعة وعم الخوف، فأراد أن ينشئ حصناً منيعاً تهوي إليه الأفئدة الخائفة والبطون الجائعة وطلبة العلم.. وكان الشيخ محمد بن ناصر يلقن الأوراد ويفض الخصومات وينظم ركب الحج ويؤمن قوافل التجارة..

حدثني «مسكة» أن الشيخ محمد بن ناصر لم يكن يقر اشتغال الزوايا بأمور السياسة وطلب السلطة، وكان يرى ذلك خطراً على الدين والدنيا، ولذا لم يقف مع الإمارة السملالية ولا الإمارة الدلائية اللتين سيطرتا على أنحاء واسعة في بلاد درعة والسوس.

وقد كانت الإمارة السملالية قد سيطرت على السوس الأقصى وأسست دولة قوية في إيليغ وهيمنت على طرق التجارة إلى بلاد السودان وكادت تتحول إلى دولة كبرى مكتملة الأركان، فلم تعد زاوية «سيدي أحمد اموسوي» التي نشأت من رحمها سوى أصل بعيد لم يعد يقام له شأناً بل تحولت إلى سلطنة دنيوية توظف وشائج الدين في السياسة والتدافع على غنائم الحكم، قبل أن تتحطم وتتهاوى.

وكذا شأن الزاوية الدلائية التي اشتهر أمرها وعظم سلطانها، وهي التي أسسها المجاطيون الصنهاجيون على مشارف سهول تادلا، وكانت مبلغ المثل في انتشار العلم ومناعة الدين والتربية على الأخلاق الفاضلة، قبل أن يشرئب شيوخها إلى الحكم والسلطة إثر انهيار الخلافة السعدية. أخبرني «مسكة» الذي وقف على أطلالها وعرف بعض شيوخها ومنهم العلامة «اليوسي» الذي قابلته بنفسي في آخر أيامه بفاس أن السلطان محمد الحاج الدلائي أعلن البيعة لنفسه وانقادت قبائل الأطلس إليه وأراد الاستيلاء على كل بلاد المغرب، فاصطدم بالسلطان رشيد بن الشريف العلوي الذي درس في الزاوية أصلاً وكان قريباً من مشايخها وأهلها ومعجباً بنهجهم في التربية والإنفاق وفعل الخير، وقد تمكن المولى رشيد من إلحاق الهزيمة بالشيخ الدلائي العجوز في معركة «بطن الرمان» فأمر بهدم كل شيء في المدينة باستثناء ضريحي الشيخين أبي بكر ومحمد، واستولى على كل ما

فيها وحكم على الدلائيين بالنفي إلى فاس التي أصبحوا يعيشون فيها إلى اليوم.

كنت شديد الشوق إلى مقابلة شيخ الزاوية «أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي» الذي سمعت عنه الكثير من صديقي «مسكة» الذي أخبرني أن أحسن موعد للقائه هو بعد صلاة العشاء وما يتلوها من حلقة ذكر وجلسة علمية يشارك فيها جل علماء الزاوية وزوارها من أهل العلم والشأن. جلست بعد الصلاة في الصف الثاني من المجلس إلى جانب صديقي «مسكة» الذي كان يعرف عدداً كبيراً من الحاضرين وقد قدمني إليهم بأني من علماء شنقيط وشعرائها المعروفين، وما كان ذاك إلا من جميل خلقه وجم تواضعه.

بعد نهاية حلقة الذكر والدرس التي انتهت بعد انتصاف الليل، هرعنا للسلام على الشيخ الذي احتضن صديقي «مسكة» طويلاً قبل أن يلتفت إلي ويقبل علي بالترحيب والبشاشة، سائلاً عن أحوال شنقيط وأوضاع تلك البلاد التي بدا لي أنه وثيق الاطلاع عليها.

بدا لي الشيخ أحمد منذ أول وهلة رجلاً وقوراً مهيباً، جميل الطلعة، مشرق الوجه، حاد النظر، كثيف اللحية لا ينفك عن الابتسام، شديد التواضع، وقد عرفت من مسكة أنه يخدم بيده أتباعه وزواره ويمشي وسطهم ويرفض أن يتقدمهم في السير..

بعد التحية والسلام قادنا الشيخ إلى أحد بيوته العديدة

المنتشرة في المدينة، وقد انفرد بنا في جلسة خاصة، تكررت من بعد مرات كثيرة بعد أن انتقلنا إلى «زاوية الفضل» في الجانب الجنوبي من تمكروت حيث الجامع الذي يصلي فيه الشيخ الجمعة، ويقيم فيه بانتظام من مساء الأربعاء إلى فجر السبت مع إحدى زوجاته.

استنشدني الشيخ بعض شعري فأنشدته بعضه وافتتن كثيراً بقصيدتي الفائية التي أمدح فيها النعل الشريف مجاراة لقصيدة علي بن أحمد الشامي وقد رأى أن قصيدتي فاقت حسناً مديحية الشامي وما ذاك إلا من حسن ظنه وجميل قوله.. وقد أمر الشيخ بتدوين القصيدة وضمها إلى الأشعار التي تنشد خلال موسم عاشوراء الذي تحييه الزاوية في كل سنة ذكراً ودعاء وتأوي إليه الأفئدة من كل أنحاء بلاد سوس.

سألني الشيخ عن حرب شريبه ودولة الإمام ناصر الدين، وقد وجدته شديد الأسف على هذه الفتنة التي اعتبر أنها مصيبة عظيمة، فكان من الأحرى حسب رأيه أن توكل أمور الحكم إلى أهل الشوكة من حملة السلاح الذين بمقدورهم درء الشرور وحفظ الأمن على أن تشتغل الزوايا بالعلم وحفظ الدين في معتقده وشعائره وسلوك جماعته. قال لي الشيخ: إن ما حدث في بلادكم هو ما حدث عندنا في بلاد السوس ودرعة من تطلع الزوايا العلمية والصوفية إلى شأن السياسة والحكم فانتهى الحال إلى خسران الجماعة التي كانت تحتضنها الزاوية وتشد بنيانها وإلى

اندلاع الحروب والفتن التي مزقت البلاد والعباد وأهلكت الحرث والنسل.

ذكر لي الشيخ أن والده حذّر شيوخ الزاوية الدلائية من طلب الحكم وحمل السلاح، واختار اللجوء إلى هذا الحصن المنيع البعيد في الصحراء فاراً بدينه وممهداً سيل العيش الكريم لسكان هذه المناطق الفسيحة التي نادراً ما تصلها يد السلطان.

وقد أخبرني الشيخ أن السلطان إسماعيل يبادله الود وقد أخذ ورده ونصح به قادة الدولة وأعيانها، مع أنه قليل الاختلاط بأهل السلطة، مكتفٍ بما نذر له الزاوية من إقامة الشعائر وتدريس العلوم وتوفير الكتب وتشجيع الكسب وتنظيم التجارة وترتيب قوافل الحج.

عرفت من الشيخ أنه من عرب معقل الذين ينحدر منهم المغافرة الحاكمون في بلادنا، وقد طلب مني ومن صديقي «مسكة» السعي إلى إصلاح ما أفسدته حرب شرببه والعمل على التقريب بين الزوايا العلمية والقبائل المحاربة، معتبراً أن مصلحة تلك البلاد هي وجود سلطة قوية تحمي الثغور وتؤمن التجارة وتسمح بإقامة الدين ونشر العلم، والمغافرة أولى بالحكم وإن كانوا لا يستغنون عن استشارة وفتوى أهل العلم الذين هم حفظة الدين وحراسه.

في زاوية «الفضل» حيث أقمت مع صديقي «مسكة» بدأت في مسلك الترقي الصوفي ولم أكن من القوم ولم أعتد طريقهم في

بلدتي «شنقيط» التي كان ديدن علمائها التمسك بظاهر الشرع والابتعاد عن التأويلات الباطنية للشريعة.. كان شيخي «ابن بلعمش» يحذرنا من قراءة كتب التصوف ويقول لنا: «للدين أركان واضحة واعتقادات منصوصة سهلة، ولا يكلفكم الله بإدراك أسرار الإيمان ولا مجاهل الغيب».. كنت تربيت في هذه المدرسة ولم أكن أرى في الدين سوى عقد جلي رابح بين الخالق والمخلوق خلاصته هو التزام عبادات محدودة يؤديها العبد وفق أحكام فقهية أتقنتها أيام الدرس واجتناب معاصٍ شنيعة يأباها الذوق وتنفر منها الفطرة وجزاء ذلك كله هو نعيم أزلي لا ينقطع بعد حياة قصيرة يعيشها الإنسان صابراً محتسباً..

كنت أرى في هذا العقد راحة للبال وطمأنينة للنفس، إلا أن مجالس الزاوية فتحت لي آفاقاً ما كنت أعرف عنها شيئاً.. أدركت من حديث الشيخ أن الإيمان ليس مجرد اعتقاد عقلي أو قول لفظي والدين ليس محض شعائر عملية تقام.. أو على الأصح ذلك الحد الأدنى المطلوب من عامة المسلمين الذين لم يرتفع بهم النظر إلى مقام السؤال والبحث ولم يدفعهم طلب اليقين إلى سلم الترقي والمشاهدة..

عرفت من الشيخ أن مسالك المصلحة والمنفعة والهوى تلتبس كثيراً بمشاعر الورع والتقوى عندما يقصد الإنسان من الدين شبع نزواته وتحقيق رغباته ولو في شكل راحة بال وهمية تجنبه حيرة الطلب وما يصحبها من لذة كدح إلى الله، فلا يقبل على

الحق إلا خوفاً من عقاب أو طمعاً في نعيم يتخيله في شكل ما حرم منه من متع الدنيا.. علمني الشيخ أن الطريق إلى الله لا نهاية له، فهو تشبه بالصفات والأسماء الإلهية الحسنى معرفة وتجربة، أما ما تعلمته من علوم عقيدة فأقصى المقصد منه دفع شبه عارضة تنزيهاً للخالق عن المخلوق، وأين الحق من الخلق؟ أو اتباعاً لتقليد موروث ليس له في فضل السبق، بل لعل الانقياد له عادة دارجة لا حرارة فيها ولا صدق..

نظمت أوانها هذه الأبيات وكنت في بداية الطلب:

إلى الله أشكو طوع نفسي للهوى
وإسرافها في غيها وعيوبها
دعتني إلى ما تشتهي فأجبتها
فضاع نصيبي في طلابي نصيبها
إذا سقتها للصالحات تقاعست
ودبت على كره إليها دبيبها
وتشتد نحو الموبقات نشيطة
إذا ناولتها الريح فاقت هبوبها
وما هي إلا كالفراشة إنها
ترى النار ناراً ثم تصلى لهيبها

كنت أخلو إلى نفسي تفكيراً وتدبراً في ليالي الشتاء الطويلة

بالزاوية وأقضي جل اليوم في مكتبتها مطالعاً آداب القلوب والأذواق، انتظاراً لقدوم الشيخ حيث نقضي معاً الخميس والجمعة محادثة ومناظرة.. وما أحلى تلك الجلسات وأعمقها...

بعد أشهر من الإقامة في تمكروت أدركت أن موسم الحج قد فات، ولم أكن في حال يسمح لي بتأدية تلك الفريضة وفق سلم أهل الحق العالية الذين يَرَوْن فيها غاية الترقي ونهاية الوصول على المسار الإبراهيمي الذي أكملته الشرائع المحمدية الخاتمة المتمة للنعم الإلهية..

كنت لا زلت في خلوتي الروحية، عندما قدم إلى تمكروت رسول خليفة السلطان وابنه «محمد العالم» مستقدماً الشيخ الذي طلب مني صحبته إلى «تارودانت» عاصمة الدولة الشريفة في بلاد سوس..

انطلقنا في اليوم الموالي إلى المدينة العامرة المحصنة بين جبال منيعة، وقد دخلنا أبوابها قبيل الغروب، وتلقانا الجند السلطاني بالترحاب والبشاشة وكأنهم على معرفة دقيقة بموعد وصولنا.. قادنا الجند إلى بيت الضيافة وهو قصر بديع على مقربة من قصر خليفة السلطان.. فغلبنا النوم بعد صلاة العشاء مباشرة ولم نفق منه إلا مع نسمات الفجر الأولى...

مثلنا أمام «الشريف» ضحى فوجدناه محاطاً بكبار رجال الدولة والعديد من علماء المدينة وكبار الشعراء والأدباء القادمين من شتى أقاليم البلاد، وكان شديد الاستبشار والبهجة بقدومنا،

معتذراً بلطف عن عدم الانتقال لزيارة الشيخ متعللاً بمهام الحكم وخدمة الرعية..

أنشدت على الفور القصيدة التي حضرتها لمدح خليفة السلطان، وقد استوقفني مرات عندما وصلت إلى التخلص من المقدمة الغزلية:

سبتني فقبلت الثرى متخلصاً

أمام امتداح ابن الشريف محمد

وهي قصيدة طويلة اشتهرت كثيراً وسار بها الركبان شرقاً وغرباً، تلتها قصائد كثيرة في الغرض والمعنى نفسه.

وكان الأمير شاعراً مجيداً وقد رد على قصيدتي بقوله:

أتانا من قرى شنقيط شعر

تعالى فوق سحر الساحرينا

يقصر شعرنا عنه لو أنا

بعثنا في المدائن حاشرينا

.. وعندما أردت أن أرجع مع الشيخ طلب مني الأمير البقاء في صحبته والإقامة معه، وضمني إلى خاصية حاشيته، وأصبحت أحد أقرب جلاسه في حلقات العلم والأدب التي كان يعقدها كل يوم بعد صلاة العشاء وتمتد إلى ثلث الليل الأخير..

لم يكن الأمير يطيق فراقي وقد طال بي المقام في تارودانت، وكان كثيراً ما يسألني عن علماء شنقيط وأعيانها، وعلى عادتي كنت أكثر الكلام عن الفقيه مينحنا علامة بلاد القبلة، فأنشدني مرة وكان الشيخ عمر الحراق حاضراً وهو عالم متبحر وشاعر مفلق من ملازمي الأعتاب السلطانية:

فدع عنك حراق ومينحن بعده

فأنت جميع الناس في شخص منفرد

في مجلس الأمير تعرفت على كبار علماء وأدباء السوس وأعيانها من أمثال محمد الرسموكي ومحمد الهلالي وإبراهيم السكتناني.. وجلهم من أتباع الزاوية الناصرية المنتهجين نهجها في السلوك والتربية.. وكان من بين جلساء الأمير من أعيان سوس من يرى أن أهل تلك البلاد قائمون بأنفسهم بعيدون عن مركز الدولة فيوسوسون لخليفة السلطان بالانفراد بالحكم والاستقلال عن مكناسة وكنت ممن يحذر من هذا الرأي ويبين مخاطره وفي الأذهان ثورة أحمد بن محرز ابن أخ السلطان الذي استقل بسوس وانحازت إليه قبائلها وانتهى مهزوماً مقتولاً..

لم يكن الأمير محمد يستغني عني في وقت من ليل ولا نهار، فكان يظهر لي كل الود ويتحفني بكل أنواع الصلات والهدايا، وفي بعض الأحيان نلهو بالمساجلات الأخوية وكان شاعراً مطبوعاً ضليعاً في اللغة واسع الحفظ لعيون الشعر العربي ومقبلاً على كتب الأدب.

ومع أن المقام استطاب لي في تارودانت، إلا أن الهمة دفعتني إلى زيارة مكناسة ولقاء السلطان العظيم المولى إسماعيل الذي سارت الركبان بأمجاده ومآثره وعجائب أخباره، فاستعنت بالله وطلبت الإذن من الأمير الذي مدني بخطاب مرفوع إلى والده يستوصيه بي خيراً ويعزو لي من الفضائل ما لست له أهلاً..

سلكت الطريق إلى مكناسة مع الركب الفاسي في قافلة عظيمة من كبار التجار مرت بمدن وقرى عديدة، فدخلنا الحاضرة الزاهرة بعد أسابيع ثلاثة من السير، وكان دخولنا ضحى كما هي العادة المألوفة...

ما أن دخلت حتى هالني مظهرها الخارق وعمرانها الباهر بقصورها البديعة وجنانها الخضراء وقبب مساجدها الكبيرة وأسواقها المزدحمة، ولم أكن شاهدت من قبل مثل هذه الحاضرة العظيمة، فبدت لي قصبة تارودانت التي هالتني أول ما رأيتها خراباً منسياً..

دخلنا المدينة من جنوبها الشرقي فدلفنا إلى القصبة الإسماعيلية، فوجدنا لها ثلاثة أبواب هي: باب الخلاء الذي يؤدي إلى خارج المدينة وعلى جانبيه برجان عظيمان، وباب الحجر وهو باب بديع منحوت من الحجر، وباب المدينة الذي يفضي إلى داخل المدينة، كما أن للقصبة ثلاثة أسوار منيعة من جهة الشمال الشرقي.

عندما دخلنا القصبة ظهر لنا المسجد الأعظم وهو أعجوبة في

حسن البنيان بصومعته العالية وزخرفته الرائعة التي جلب لها كبار البنائين من كل بلاد الدنيا، وقد ألحقت بالمسجد مدرسة وخزانة وحمام وأسواق عامرة موقوفة على الجامع وحلقات الدرس، كما ألحقت به بيوت للضيافة يرتادها عابرو السبيل والغرباء على المدينة... أخبرني أحد رفقائي أن هذا الحي من المدينة يسمى بمدينة الرياض وفيه يسكن كتاب الدولة وعمالها فضلاً عن الأعيان وكبار التجار..

عملت بنصيحة رفيقي «ميمون الفاسي» فنزلت في دار الضيافة، فاستقبلني القائم عليها «بلال السوسي» أفضل استقبال، وكان عجوزاً أسمر البشرة قصير القامة لا يكاد يُبين من التأتأة، في وجهه آثار الجدري، لا يفتأ يرحب مبتسماً فتبدو أسنانه الصفراء التي تساقط نصفها..

اختار لي «بلال» حجرة نظيفة في فناء دار الضيافة مفروشة بالزرابي الفاسية الحمراء، ونصحني بالنوم للتخفيف من أعباء السفر في انتظار صلاة الظهر التي يتلوها موعد الغذاء مع بقية الضيوف الذين لم يكونوا يومها يتجاوزون العشرة وهو عدد قليل على غير العادة..

كنّا في آخر شهر شعبان، وقد بدأت إرهاصات استقبال شهر رمضان الأبرك جلية في حركة الأسواق وتزويق الأسوار والأبواب وحديث الناس الذي لا ينقطع عن بركات وفضائل الشهر العظيم.. ولم أكن قد تعودت على هذه الأجواء في بلادنا حيث لا نعرف

من رمضان إلا صوم نهاره وقيام ليله وقليلاً من السمر في سهراته..

قضيت أياماً ثلاثة في دار الضيافة، على المنوال ذاته صلاة جماعة في المسجد ومائدة طعام لا تتغير من حيث مادتها ووقتها.. ابتسامة بلال الصفراء على حالها وأحاديث الزوار من التجار الغرباء تتكرر بلا تغيير، وحركة الأسواق لا تهدأ قبل منتصف الليل...

في اليوم الرابع دخلت سوق العطارين وسألت عن «الحاج الزموري» كبير تجار الرواق الذي نصحني «ميمون الفاسي» بالمرور عليه ليسهل لي المثول أمام السلطان الذي له صلة مكينة به وبكبيرِ وزرائه.. دخلت على الرجل الوقور الذي بدا لي في السبعين من العمر وقد اشتعل رأسه شيباً عدا شعرات تكاد تتدلى على جبهته، رد السلام بصوته الجهوري وبادرني بالقول: «لا بد أنك من بلاد شنقيط، كما أدركت من سحنة وجهك ولكنة لغتك»، أجبته بالجواب فرحب كثيراً، وصب لي قهوة سوداء لم أستسغها، ثم سألني عن سبب زيارة مكناسة وماذا يمكنه أن يعمل من أجل مساعدتي، فأبلغته تحية صديقه الفاسي وذكرت له غرض الزيارة وكتاب الأمير محمد العالم إلى والده السلطان، فكأن الأبواب المغلقة فتحت.. طلب مني «الحاج الزموري» أن أنتقل إلى بيته وأرسل أحد أعوانه لجلب متاعي الزهيد ووعدني بتدبير لقاء السلطان قريباً..

كان انتقالي إلى بيت الحاج الزموري ليلة هلال شهر رمضان الذي أعلن من قصر السلطان بعد صلاة العشاء بإطلاق الرصاص من مدافع البارود، قبل أن ينتشر الخبر السعيد من مآذن المساجد وأسوار المدينة... خصص لي الحاج الزموري جناحاً فسيحاً في داره العامرة، وأوكل لخدمتي غلاماً من الصقالبة العبيد نشيط الحركة لبق الحديث.. وفي مساء اليوم الموالي بعد نهاية صلاة التراويح التي كنّا نؤديها في المصلى الذي بناه مضيفي في فناء داره أبلغني الحاج الزموري أن رسول السلطان ضرب لنا وقت الفطور في الغد موعداً لمقابلته..

نصحني الحاج الزموري بأن أذهب إلى الحمام للاغتسال وتهذيب شعر الرأس واللحية قبل أن أرجع قبيل العصر إلى البيت، وكذا كان الأمر، فأهداني حلة فاسية جميلة مع عمامة بيضاء معطرة بمسك طيب الرائحة قال إنه أعده بيده واستخلصه لنفسه..

انطلقنا إلى قصر السلطان المسمى قصر «الستينية» ولم يكن بعيداً من دار مضيفي، ووصلناه قبيل الغروب.. وهو قصر عجيب تحار فيه الأنظار، مرتفع الأعمدة وكلها من الرخام الأبيض الجميل، والمرمر المزخرف وجدرانه مطلية بحلل بديعة...

أخذتني روعة المشهد فبقيت صامتاً كأنما عقد لساني، ولذا لم أرد التحية لحاجب السلطان الذي استقبلنا على باب القصر الرئيس مرفوقاً بعدد من الجند والخدم الذين ما إن دخلنا قاعة

الحكم حتى بادروا بالانحناء والدعاء بطول عمر السلطان.. اقتربنا من مجلس المولى إسماعيل فاستأذنا بالدخول، وبعد الإذن بإشارة خفيفة من اليد دخلنا المجلس فصافحنا مرحباً بالقول: «أهلاً بالعطار وشاعر شنقيط» وكان خبرنا قد سبق إليه وعرف من أمري ما اشتهر في بلاد سوس..

وجدت السلطان متوسط القامة، نحيف البدن، حاد النظر كأنه يخترق ببصره أحشاء جلسائه، تظهر عليه علامات الذكاء والشجاعة، تعلو وجهه هيبة الملك، لا ينفك يحرك أصابع يده ويجيل بصره إلى الأعلى دون ابتذال وكأنه يؤدي شعيرة.. كان السلطان يرتدي كساء أزرق مع عمامة بيضاء ويحمل سيفاً مرصعاً بالجواهر وأمامه المصحف الشريف الذي لا يفارقه...

أفطرنا على مائدة السلطان العامرة وصلينا في المسجد البديع الملاصق لقصره وحضرنا الأذكار الرمضانية التي امتدت إلى صلاة العشاء ثم أدينا صلاة التراويح، وعدنا إلى مجلس السلطان فأنشدته القصيدة التي دبجت في مدحه، فاستحسنها غاية الاستحسان وطلب إعادتها مرات وخاطبني بالقول: «هكذا يكون شعر الشناقطة: قوي السبك، جزيل اللغة، لم تفسده الصنعة ولا التزويق».. ثم أضاف: «لم يبالغ ابننا محمد عندما وصفك بشاعر الوقت.. فما سمعناه من بديع قولك فيه الكفاية والدليل».

استدعاني السلطان مرات عديدة في رمضان لسهراته العلمية والأدبية، منها مرة في «قصر النصر» الذي تقيم فيه زوجته خناثة

البركنية، وكانت حاضرة للمجلس الذي ضم مجموعة محدودة من رجال العلم من بينهم «المكي الدكالي» الذي عهد إليه المولى إسماعيل بتدريسها علوم الشريعة التي فاقت فيها نساء عصرها خصوصاً علم الحديث وعلم السير.. وقد عرف عن خناثة حبها لأهل العلم وقربها منهم ورجاحة عقلها التي أهلتها لأن يتخذها السلطان مستشارة له تحرر رسائله الخاصة وربما استعان بها ملوك الإفرنج في مطالبهم من أمير المؤمنين..

تطرق السلطان في ذلك اللقاء إلى حال غرب الصحراء، فقال لي: «لقد طلبت من أم عبد الله أن تكون معنا الليلة، لسماع رأيها في ما شغلني من أمر بلاد شنقيط وما بلغني من سوء وضعها.. وكنت قد زرتها قبل سنوات قادماً من السودان والتقيت بكبار قادتها وعلمائها، وبدا لي أوانها أن خطرين يتهددانها أولهما ما احتدم من صدام بين أهل الشوكة وأهل العلم، وثانيهما ما أصبح للأوربيين من أطماع في سواحلها بعد أن تحولت مسالك التجارة من طرق القوافل إلى موانئ البحار.. ولقد بلغني أن المملكة الفرنساوية أصبح لها حضور قوي في قرية ندر وراسلني بعض ملوك تلك المنطقة مطالبين الوقوف معهم في وجه القائمين على الشركة الفرنسية الذين تحولوا إلى حكام فعليين ينصبون الملوك ويعزلونهم ويستعبدون السكان ويبيعونهم في أسواق النخاسة ويرسلونهم مكبلين بالحديد إلى الهند الجديدة».

كان السلطان يتكلم ببطء ليخفي ميله إلى الإسراع في

الحديث، وقد أضاف قائلاً: «لعلك لا تعرف أني وحدت بلاد المغرب وحررت الثغور وانتصرت على ممالك الإفرنج وعلى السلاطين العثمانيين وأقمت أقوى العلاقات بدول أوربا الكبرى.. وأكثر ما عانيت منه هو فتن القبائل وتمرد الزوايا، ذلك أن القبائل بطبعها تأبى السيطرة وتهفو للاستقلال وترى في تعاضدها حماية من الفوضى والظلم متناسية أن حلف النسب ضيق ومآل القبائل التناحر والاقتتال، أما الزوايا فتميل إلى تحويل رابطة الدين وولاء التزكية إلى قاعدة للملك بما يفضي إلى إفساد القلوب بهوى الرياسة والى تحميل السياسة ما لا تتحمله من معاني الهداية والنجاة..».

وقد أضاف السلطان قائلاً: «إن هذه البلاد لا مخرج لها إلا بتوطيد أركانها وتعزيز نفوذها جنوباً، ففي جنوبها تتجدد دماؤها ويتعزَّز أمنها ويتسع عيشها.. فملوك صنهاجة المرابطين هم الذين بنوا المغرب السني المالكي الأشعري فوحدوا البلاد ودحروا القشتاليين.. ولقد أدرك أحمد المنصور الذهبي تلك الحقيقية فَلَو لم يصل لتنمبكتو ويقتني كنوز بلاد السودان لما أمكنه من إنقاذ بلاد المغرب في لحظة حرجة.. وذلك ما فعل أخي المولى الشريف وفعلت من بعده»..

أخبرني السلطان أنه لم يوحد المغرب ويعزز الأمن والسكينة في البلاد إلا بفضل جيش الوداية الحساني وجيش البخاري السوداني، وكلاهما من الصحراء وبلاد السودان..

أما جيش الودايا الذي كان لزوجته البركنية خناثة قسط وافر في إنشائه وتنظيمه فأهم فروعه هو «رحى المغافرة» الأشداء الذي قد أضيف إلى رحى أهل السوس من عرب المعقل من بني عمومتهم، وأما جيش البخاري فهو من العبيد الذين جمعوا من القبائل أو اشتراهم السلطان في رحلته السودانية الصحراوية..

بعد نهاية السهرة طلبت زوجة السلطان «خناثة» أن ألتقي بها في مقصورتها، وكانت تحيط بها عشرات الجواري والخدم، فتواصل الحديث الذي بدأ مع السلطان، وقد طلبت مني الرجوع إلى صحراء شنقيط وعمل ما في وسعي من إصلاح بين القبائل المتناحرة واستمالة الزوايا العلمية والصوفية لسلطة واحدة تعزز وحدة البلاد ومنعتها، خصوصاً بعد ما ظهر من أطماع أورباوية جديدة يدفعها ما انهال على أوربا من ثروات عظيمة منهوبة من الهند الجديدة وما عرفته العلوم في أمصارها من رقي.. وقد طلبت مني الجلوس إلى سفير السلطان «ابن عائشة» إلى ممالك أوربا الذي عاد قبل أيام من مهمة في فرنسا إلى ملكها «لويس الرابع عشر» الذي يسمونه «ملك الشمس».

في اليوم الموالي اقتادني أحد أعوان السلطان إلى الدار التي يقيم بها «عبد الله ابن عايشة» وكانت بيتاً صغيراً نظيفاً في القصبة السلطانية قريباً من الجامع الكبير..

وجدت «ابن عايشة» رجلاً أبيض اللون شديد سواد الشعر رغم تقدمه في السن، واسع الجبهة، في وجهه بقع حمراء عديدة

قيل لي أنها من آثار التعذيب ومثلها في أماكن شتى من جسمه.. قيل لي أنه من عرب الأندلس الذين يسمون بالمورسكيين، وقد تعرضت أسرته لما أصاب بلاد الأندلس من نكبات تدمى لها العين وينفطر القلب.. مارس «ابن عايشة» سنوات الإغارة على السفن الأوربية في سواحل المغرب، وقد تعرض للأسر ومكث في بلاد الإنغليز ثلاث سنوات مكنته من إتقان لغتهم كما أنه يتقن لغة الفرنسيس واللغة القشتالية فضلاً عن اللاتينية، وله مشاركة في العلوم الشرعية والفلسفة والمنطق..

حدثني «ابن عايشة» عن أحوال أوربة السياسية والعلمية بكثير من الافتتان.. حدثني على الأخص بآلة النسخ العجيبة التي سمحت باستنساخ سريع للكتب التي كان القساوسة والرهبان يحتفظون بها لأنفسهم فلا تصل عامة الناس، وقد غدت اليوم كتب الدين والأدب والفلسفة والعلوم منتشرة في كل مكان وفي متناول كل يد، واعتبر «ابن عايشة» أن هذه الطفرة الكبرى وحدت الأمم الأوربية وقربت بينها فأصبحت أخبار كل بلد تصل للبلد الآخر عبر صحائف صغيرة الحجم سهلة التناول.

وقد رأى «ابن عايشة» أن هذه الآلة العجيبة كان لها الأثر على ما مَس الديانة المسيحية من تغيرات كبرى في السنوات الأخيرة، إذ تمردت طائفة من النصارى تسمت بالملة الإصلاحية وطالبت بتأويل التوراة والأناجيل حسب أفهام عامة الناس ورفضت وساطة الرهبان والقساوسة مع الله وأعلت من شأن

العمل والكسب بدل الرهبنة والعزوف عن متع الدنيا، وهي كلها معانٍ تلتقي مع الإسلام وشريعة نبيه عليه الصلاة والسلام.. وقد أخبرني ابن عايشة أن هذه الملة الجديدة تسببت في فتن مظلمة سالت فيها الدماء وقطعت فيها الرقاب..

كما حدثني ابن عايشة عن أحوال ملوك أوربة، منوهاً بما حدث في بلاد الإنغليز من إصلاح في الحكم بعد الفتنة الكبرى التي عرفتها البلاد، وقد شرح لي أن الكنيسة لم يعد لها التأثير في أمر السياسة وأن الحكم في تلك البلاد أصبح مقيداً بشرائع يتفق عليها الناس من منطلق ما يرونه مصالحهم الجامعة.. ومع أني ما اشتغلت في أيام طلب العلم بالفلسفة عدا قراءة كتب أبي حامد وأبي الوليد، إلا أني أدركت من كلام محدثي أن هذا الفن بلغ شأواً بعيداً في أوربة اليوم وغدا له واسع الأثر في عقائد الناس وسلوكهم، ولم يعد اشتغالهم بأرسطوطاليس وأضرابه من فلاسفة الإغريق بل صنعوا لأنفسهم مذاهب تنبع من التدبر الحر في النفس والآفاق المنظورة، ويقولون إن اليقين ينال بتنظيم العقل وشده إلى أعيان الأشياء..

بيد أن لقائي بابن عايشة لم يكن لأسمع منه آراء فلاسفة أوربة وأدبائها وعلمائها المبدعين، وإنما لأبحث ما طلبته مني الأميرة خناثة من اطلاع على أوضاع المملكة الفرنساوية وسياساتها في سواحل الصحراء والسودان التي فتحت فيها مراكز نشطة للتجارة.. بغية الوقوف ضد ما لها من خطر على تماسك وأمن تلك البلاد التي لا انفصام بينها والمغرب الأقصى...

حدثني ابن عايشة عن رحلته الأخيرة لفرنسا وعن أنوار باريز وقصورها الفريدة وحدائقها الغريبة، وتوقف عند «قصر فرساي» العجيب الذي شيده في شكله الحالي الفريد «الملك لويس الرابع عشر».. وكان ابن عايشة قد التقى مرات بهذا الملك الذي ارتفع صيته في كل مكان وعاش مثل السلطان إسماعيل أغلب سنوات عمره المديد على صهوة جواده، وعرف عنه قوله كما أخبرني ابن عايشة «لقد بالغت في الشغف بالحروب»..

قال لي «ابن عايشة» إن لويس الرابع عشر يسمونه في فرنسة بـ«لويس الأفريقي» لكثرة اهتمامه بتلك المنطقة وكثرة اتصاله بملوكها الذين يرسل لهم الرسل والسفراء، ولا يخفي عزمه على غزو أفريقيا والسيطرة عليها بما يجعل منه أعظم ملوك الدنيا..

وفي هذا الباب يفهم إنشاء مملكة فرنسا شركة تجارية في ندر على ضفاف نهر صنهاجة (النيل الغربي) تتعهد بأنماط التجارة الجديدة وتضمن نصاب تلك المملكة الأورباوية الكبرى من تجارة العبيد التي تتهافت عليها الممالك الأورباوية المتنافسة..

بعد لقاء «ابن عايشة» الذي كان مقتضباً قصيراً بالنظر إلى سفره العاجل إلى حاضرة سلا التي له أهل فيها وأملاك كثيرة جلست مع السلطان للمرة الأخيرة بحضرة زوجه الأميرة «خناثة» فطلب مني الإسراع بالرحيل والعودة إلى بلاد شنقيط لإخباره عن جديد أحوالها والسعي ما أمكنني الجهد إلى رأب الصدع بين علية قومها المتنافرين، مع التنبيه إلى مخاطر الأطماع الأورباوية التي

اعتبر أن الغاية الكبرى منها تطويق المغرب الأقصى وحصاره وسد منافذ الوصل بينه وبين بساطه الصحراوي السوداني..

أمر لي السلطان بعدة السفر من دواب حاملة ونفقة وخادم رفيق، فاستأذنته بالمرور إلى مدينة فاس والانطلاق منها مع الركب المراكشي وصولاً إلى سوس ومنها العودة إلى مدينتي شنقيط، فأذن بالمطلوب، وأكثر الثناء والمدح عند الوداع.. فكان الانطلاق في الجمعة الأخيرة من ذي القعدة بعد شهرين حافلين قضيتهما في مكناسة في رغد من العيش ودوام البهجة..

في فاس زرت المعالم المعروفة من أضرحة مباركة ومدارس عتيقة، والتقيت على ضيق الوقت بالعلامة «اليوسي» وكان قد طعن في السن وإن ظل حاد الذهن صافي القريحة..

كان «حسن اليوسي» حقاً مفخرة فاس وبلاد المغرب عموماً.. نشأ في الزاوية الدلائية وتعلم فيها حتى برع في كل العلوم الآداب وأصبح شاعراً مفلقاً لا يبارى في نظم القريض.. وبعد خراب الزاوية التي رثاها بشعر غزير نفاه السلطان «مولاي رشيد» إلى فاس فتصدر للتدريس فيها ولقي من القبول ما لم ينله أحد من قبله، ثم بايع السلطان إسماعيل وأخلص له الولاء فكان صريحاً في نصحه لا يسكت عن خلل يراه أو تقصير يستشعره ولم يكن السلطان يضيق بنصائحه فقد خبر صدقه وأدرك ببصيرته أنه من أهل الحق المؤيدين بنور اليقين..

لم أجد الوقت الكافي لصحبة اليوسي والأخذ من علومه

الغزيرة، فاكتفيت بزيارته في بيته الجبلي الجميل في ضاحية فاس الذي كان يتعهده في فترات القيظ ويتخذه مكاناً لخلواته الصوفية.. وجدت الشيخ اليوسي شديد التعظيم للزاوية الناصرية وشيخها أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، وقد قال لي: «لقد أحسن التصرف مشايخ الناصرية إذ لم يسعوا للحكم والإمساك بزمام السلطة، فاكتفوا بمملكة القلوب التي لو عرف ملوك الدنيا حلاوتها لحاربوا المتربعين عليها بالسيوف»..

بعد السلام على «اليوسي» وزيارة مدينة فاس واقتناء ما أمكن حمله من نفائس كتبها من الوراقين المحيطين بجامع القرويين، عزمت على الرحيل إلى مرابع الصبا وأرض الآباء والأجداد، يحدوني الشوق إلى الأهل والأصحاب، والبال مشغول برسالة السلطان وزوجته الكريمة وبحديثهما عن الصحراء وحوارها من بلاد السودان وأطماع الأوربيين وقد ظهرت الحاجة إلى مظلة تحمي تلك البلاد من الضياع.

لحقت بالركب الفاسي وهو يتهيأ للانطلاق في قافلة كبيرة تفوق عشرين جملاً يحرسها عدد من الفرسان، وسلمنا الطريق السوسي الوعر حتى وصلنا إلى تارودانت حيث بتنا ثلاث ليال وكنت في ضيافة الأمير «محمد العالم» الذي ابتهج لقدومي أشد الابتهاج وحرص على أن ألازمه طول الوقت، ولم يأذن لي بالسفر إلا بعد أن وعدته وعداً قاطعاً أن أعود في أقرب الآجال إلى سوس... وكانت فرحتي غامرة عندما التحق بِنَا في واد نُون

صديقي «مسكة» الذي تركته في الزاوية الناصرية طيلة فترة مكثي في مكناسة.

وبعد أسابيع ثلاثة دخلت مدينة شنقيط في الهزيع الأخير من الليل، وعلى عادة سكان البلدة العتيقة قضيت السويعات الباقية من الليل في المسجد، ولم أنتظر طويلاً قدوم المصلين الذين بدؤوا يسارعون إلى الجامع منذ نسائم الفجر الأولى، فكانت الفرحة غامرة بالسلام عليهم ومعرفة بعض أخبارهم قبل الانطلاق إلى بيت الأهل..

الفصل الثالث

رجعت إلى شنقيط بعد أكثر من سنة قضيتها متنقلاً بين بلاد سوس ومكناسة وفاس، ولا أخالني أقول غير الصدق عندما أقول أني عدت شخصاً آخر بكل المقاييس والموازين.. قد لا أكون ازددت علماً ومعرفة مع أني سمعت من كبار علماء سوس وفاس وشيوخ الزوايا في تمكروت، وحضرت مجالس السلطان وخليفته التي يجتمع فيها أهل المعارف والنظر، لكني اكتشفت عوالم كبرى وسعت مداركي وفتحت لي منافذ مغلقة ونورت بصيرتي في شؤون الدين والدنيا... لقد أدركت كم أن صحراءنا ضيقة محدودة على اتساعها، وفهمت أدق الفهم كيف أن أهل هذه البلاد لا قوام لهم ولا أمن دون سند قوي يشد عضدهم ويحمي ثغورهم، ويجنبهم غوائل العدم التي تتربص بهم في كل لحظة، مع أنهم يتوهمون أن الكون الأكبر انطوى فيهم وأنهم مركز الدنيا وتبرها النادر.. رأيت بني قومي منقسمين متدافعين، وهم على قلتهم قبائل شتى قليلة العدد والعُدَّة عاجزة عن تقاسم منكب واسع من الأرض يحفرون فيه آبارهم ويرعون فيه أنعامهم ويدفنون فيه

موتاهم.. رأيت زوايا يرتادها علماء أفاضل صرفوا نور البصر في التعلم وزكوا القلوب بالمجاهدة والذكر وعزفوا عن بريق الدرهم والدينار، لكن جرأة الإيمان والورع دفعتهم إلى طلب فرض العدل المطلق بموازين الدنيا الناقصة، فلم ينتبهوا إلى أن الأمر يقتضي قيام رعية من طينتهم، ونسوا أن موطن الناسك خلوته لا عرش الملك.. أدركت أن ما تعودنا عليه في سابق العهد من سكينة في حواضرنا العتيقة ومن رغد عيش بفضل تقاليد عريقة دأبنا عليها في التجارة والبيع أصبح من «ماضي كان»، فلقد تحولت مسالك التجارة التي اعتدنا عليها وتبدلت أصنافها وبضائعها، وظهرت أقوام من وراء البحار لهم أديان وألسن وأحوال عيش لا نعرفها، وظاهر أمرهم أنهم ليسوا ضيوفاً رحلاً ولا زواراً مؤقتين بل لهم نزوع جلي للإقامة والمكث والسيطرة ولهم شوكة لا ندري عنها شيئاً ولولا ما أخبرني به «ابن عايشة» في مكناس لبقيت مثل غيري أرى فيهم مجرد بيت تجارة يسوسه أقوام من الروم يخدمهم أعوان من بلاد السودان، والحال أنهم ممالك عظمى أبدعت من صنوف العلم والقوة والتدبير ما سيكون له أكبر الأثر علينا وعلى العالم كله من حولنا..

وجدت شنقيط على حالها.. لم تتغير في شيء.. المسجد العتيق في قلب البلدة لا يزال قطب الحياة فيها، يجتمع فيه الناس لأمور دينهم ودنياهم، البيوت الحجرية المتراصة على ما عهدت من عادات لا تتغير في أعراف السكن وأوقات الأكل والنوم

والمسامرة.. أصدقاء والدي على سابق حالهم في الالتقاء والمحادثة وإن تصيد الموت بالتقسيط بعضهم...

فرح القوم لقدومي، ولعل فرحهم بالكتب التي حملت معي من فاس أكبر من ابتهاجهم برجوعي إلى بلدتهم الذي حسبوه ناقصاً بل عديم المعنى ما دمت لم ألتزم بعهدي بالحج إلى بيت الله العتيق وزيارة مدينة نبي الشفاعة والرحمة عليه أفضل الصلوات والتسليم.. وهكذا اعتبروا سفري معلقاً وعودتي نشازاً، وكنت أشرح لجلسائي ظروف عودتي المفاجئة، وأجدد لهم العهد بالحج في القريب العاجل...

لم أمض في شنقيط سوى أسبوع واحد.. سلمت فيه على الأهل وجلست سويعات مع زوجتي «حورية» التي لم يكن بمستطاعي على عادة البلاد اللقاء بها إلا في ساعات الليل الأخيرة..

صحبت القافلة «اللبية» المتجهة من أحواز شنقيط إلى «آوكار»، ومن آوكار اشتريت جملاً من أحد الرعاة البدو وطلبت منه مرافقتي دليلاً إلى مخيم بني قومي، وكان عندئذ في منطقة «شمامة» التي يرتادها أهل تلك البلاد في الصيف قبل أن تهبط الأمطار فيلجؤون إلى مضاربهم في شمالاً حيث الرمال المنبسطة والماء العذب والأجواء الباردة ليلاً..

سلمت على أعمامي وأبناء عمومتي.. ولم أمكث بينهم طويلاً، فقد كنت على موعد مع صديقي «مسكة» الذي سبقني إلى

منطقة «إكيدي» غير البعيدة، وقد وجدته بالفعل في مخيم كبير بمنطقة تسمى «تنيشكل» هي أقرب لمدرسة كبرى لا شغل لها سوى العلم والتعلم، يرتادها جمع غفير من أبناء تلك المنطقة ومن غيرها من المناطق بما فيها بلاد السودان البعيدة..

استطبت الإقامة في ذلك المخيم وأنست إلى أهله الطيبين بأخلاقهم العالية وسلوكهم اللبق وعزوفهم عن اللغط والجدل مع ميل ظاهر إلى الظرف والمزاح.. تخيرت من بين الخلان أصدقاء خلص، في مقدمتهم «محمد أليدالي» و«محمد الكريم» و«مينحنا»..

أما أليدالي فهو من آيات الله في العلم والظرافة وكرم الخلق وجودة الشعر، وله فهم بديع في كتاب الله العزيز وتشبع نادر بأذواق أهل الحق وأقوالهم، وهو دون منازع كبير شعراء أهل هذه الأرض.. سمعت منه الكثير عن «شيم الزوايا» وأخبار أمر دولة «ناصر الدين» التي رواها عن أقرب الناس إليه ممن حضر الوقائع وعرف أحوال الرجل الصالح.. ومع أني على اتفاق مع صديقي أليدالي في إجلال الرجل والتنويه بسيرته وشيم قومه، إلا أني كنت أكرر على مسامعه أن حرب شرببه كانت وبالاً على أهل هذه البلاد بما أسالت من دماء وقطعت من أواصر وأحدثت من فتنة وشقاق، في وقت كان المطلوب هو الحفاظ على حلف أهل الدين وأهل الشوكة لحماية الثغور ورعاية شؤون الدين والدنيا والوقوف ضد أطماع الدول الأورباوية.. أما صديقي أليدالي فكان

يرى أن هزيمة الزوايا لا تغير شيئاً من صحة قصدهم وشرعية أمرهم، إذ المطلوب هو إقامة إمامة دينية تقيم الشرائع وتضمن العدل وتأخذ بالحق، أما وقد أخفقت المحاولة فالواجب اليوم هو اعتزال «الظلمة» والتمسك بالجماعة وإناطة الأمور العامة بها صوناً للشرع، مع التشديد على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو في حدود الجماعة الضيقة. لم يكن صديقي أليدالي يرى رأيي الذي هو أيضاً رأي القاضي «المختار بن الفقيه موسى» ورأي صديقي «مسكة» بتجديد العهد مع قادة المغافرة ومبايعتهم لإصلاح حال البلاد وتجنيبها الفتن والفوضى، أما الدين فحفظه موكول لله ومن بعده لجماعة المسلمين تقيمه وتصونه ولا بديل عن الشوكة لتأمين الناس والدفاع عن البيضة..

ومع شدة إقباله على العبادة والتزامه بأوراد مشايخنا الناصريين الذين أخذ طريقهم على يد ابن عمه «يختار» الذي زار زاوية تمكروت وتلقى بركاتها، كان أليدالي نشط الحركة، كثير الأسفار، حدثنا عن بلاد تيرس التي دأب على ارتيادها كل عام، كما حدثنا عن زيارته للدار الهولندية في «أكادير دوم» ولقائه بالقائمين عليها من تجار ومعهم قسيس من مذهب الإصلاح جادله في أمور العقيدة والدين وأحوال الناس اليوم، وقد أكرم الهولنديون أليدالي وأهدوه الهدايا الثمينة من بينها هدية من الكاغد الرفيع ابتهج بها لما عاناه من حاجة إلى الورق لتسطير مصنفاته الكثيرة.. كنت أحرص على مجالسة أليدالي وكثيراً ما

نسهر في حل الألغاز العلمية أو المساجلات الشعرية، وكما أسلفت فهو من أساطين الشعر وله ذوق رفيع فيه، ويرى أن الشعر الحقيقي لا بد أن يجمع بين التروض الطويل والقريحة الفطرية، كما يرى أن غرضه الأساس يجب أن يكون نظم الشمائل والسير النبوية وكان هو فارس المديح والسير...

كان أليدالي يظهر الفرح لمجالستي في الأشهر التي قضيتها في «تنيشكل» ويقول لي: «لقد أخرجتني من عزلة الناس، فالناس اليوم شوك بلا ورق بعد أن كانوا ورقاً بلا شوك»...

أما «الفقيه مينحنا» الذي هو أعلم أهل تلك المنطقة المسماة بالقبلة، فهو من أجل من عرفت من أعلام هذا الزمان، وإليه الانتهاء في علوم عصره.. صحبته وحضرت مجالسه العامرة.. وأعجبني فيه جمعه بين علوم النقل وعلوم العقل وله قدم راسخة في علم التوحيد الذي يرى فيه علم العقيدة الصحيحة الذي دونه لا يتم إيمان إلى حد أنه أفتى بتكفير من لا يستحضر الصفات الواجبة في حق الله.. كنت أجادله في المسألة ورأيي هو رفض قانون للاعتقاد يلزم به الناس في دينهم والاكتفاء من العقيدة بالألفاظ المطلوبة والإيمان القلبي دون بحث في تفصيلات الاعتقاد التي ليس للعامة قبل بها.. فقلت في الرد على صديقي «مينحنا»:

فالكفر في التقليد في الأخرى فقط

يختص بالإجماع عند الجازم

والكل في الدنيا على إسلامه
يجري بملزوم الخطاب ولازم

فما أعسر الدين لو حول إلى مذهب عقلي صارم يبنى على الحجج المنطقية والإلزامات البرهانية، ولئن كنت أشعرياً متشبثاً بعقيدة أهل السنة التي أخذتها عن شيخ متكلمي بلاد شنقيط «ابن بلعمش» فإني لم أر في هذا العلم من الفائدة إلا دفع شبه من ابتلى بشكوك العقل وضاع في متاهات الفلسفات.. ولعل إمامنا الأشعري خرج عن أهل الاعتزال لتشددهم في طلب المعقول في العقائد، وحسبه أنه بنى مذهبه على رفض تكفير أهل القبلة وعلى القول بالشفاعة المنجية لأهل المعصية وأسبقية الرحمة على موازين العدل التي تصورها المعتزلة وفق منوال العدل البشري والحال أن عدل الله لا ينفصل عن رحمته، ورحمته سبقت عذابه ووسعت كل شيء ولا قنوط للمؤمن من رحمة الله..

لم تكن نقاشاتنا الكلامية لتشغل وقتنا كله.. فالفقيه مينحنا على ورعه وزهده وواسع علمه ظريف لبق على عادة أهل تلك البلاد، كثير المزاح لأصدقائه وطلبته، محب للشعر وإن كان مقلاً فيه، يعجبه صوت المنشد حسن النغمة ويتواجد لرقائق الشعر من غزل وربما ترنم ببعض المدائح النبوية..

وكان من عادة الفقيه «مينحنا» أن يسافر إلى الأحياء القريبة على ظهر برذونة حمراء اشتراها من تاجر من قبائل الفلان، فقلت له ممازحاً:

لسيدنا مينحن برذونة إذا
خطت أخطأت سير المراخي الأمالح
تباهي ذوي الأعراف منها ذؤابة
على نافع بن التونسي بن صالح

فأجابني الفقيه بأبيات بديعة ظريفة:

لئن كان عبد الله قد عاب عرفنا
وأخطأها سير المراخي الأمالح
فقد راهنا تبليغها واصطلاءها
إذا ارتكبت يوماً أمام الملامح
عليها فتى لا ينثني لكريهة
وليس بذي سيف ولا برامح

كان مينحنا لغوياً بارزاً لا يفارقه صحاح الجوهري، فقلت مداعباً له في الإشادة بقاموس الفيروزابادي:

كتب اللغة كثيرة لكنها
مجموعها لا تعدل القاموسا
أو ما تراها أبطلت وتعطلت
كالسحر أبطل حين ألقى موسى
أوجه التشابه أنها لما بدا
طرحت كشعر الراس يلقى موسى

فرد علي بقوله:

الـجـوهـري هـو الـمـقـدم إنـه

في الفن كان لهم هدى ملموسا

لـو أنــه لاقـاه حـمـر وجـهـه

لا حـاسـداً لا حـاقـداً لا مـوسـا

ولم يكن «مينحنا» فعلاً من أهل السيوف والرماح، ولم يكن يرى مسوغاً لحمل السلاح لتغيير منكرات الخلق، بل كان يرى أن الجماعة تناط بها شرائع الدين ومقاصده ومكارم أخلاقه، وأساس أمرها «المداراة» لدفع المظالم وصون المحارم وإكرام الضيف والأخذ بحقوق المظلوم.. فكان يحض على اجتماع الكلمة وتقوية اللحمة ويرى أن الدين كاف بنفسه لسياسة أمور الناس دون حاجة إلى سلطة تكرههم على الطاعة وتلزمهم على القسط، فإذا صلحت القلوب كما يقول انتفت الحاجة إلى الأمانة وما وضعت الإمامة إلا لمقتضى النظام والعدل فإن ضمنا دون حاكم متغلب فذلك المقصد الأسنى..

أما «محمد الكريم» فهو كاليدالي من تلامذة الفقيه مينحنا النابهين والمقربين، وهو على علمه وحلمه سيد مطاع القول، مسموع الرأي في بني قومه، وهو على مذهب شيخه وعمه «الفقيه المين» قائد الزوايا بغد الإمام ناصر الدين الذي أحجم عن الحرب واختار السلم وتصالح مع أمراء المغافرة وكبرت حظوته

عندهم.. كنت أخلو طويلاً إلى محمد الكريم وأتبادل معه شعر المدح والإخوانيات الظريفة وكثيراً ما أسعد بضيافته المثلى في خيمته العامرة حيث يقدم لضيوفه التمر والعسل مع أطايب لحم الغزال.. وقد مدحته بقصيدة طويلة وقفت فيها على فضله وأمجاد قومه الكرام، من أبياتها:

إمـام بـلـغـت يـده الـمـعـالـي

مــحــل لا تــرمــه يــدا ريــم

يـدافـع عـن حـقـائـق كـل مـجـد

مـدافـعـه الـغـيـور عـن الـحـريـم

كانت شهوراً سعيدة قضيتها في «تنيشكل» مع خلان الوفاء في حي يشع علماً وخلقاً، وقد طال انتظاري لصديقي «مسكة» الذي مكث بعض الوقت في «تيرس»، فلما قدم سارعنا إلى نجائبنا قاصدين مركز الإمارة، وكان يومئذ على مقربة أميال من «مرسى جور» بمنطقة «الجريدة».. قدمنا إلى خيمة الأمير «عمر أكجيل» وهي خيمة كبيرة من الوبر الأسود يحرسها فرسان أشداء في قلب مخيم ممتد على طول ميل، تجاورها خيمة القاضي «المختار بن الفقيه موسى».. استقبلنا الأمير بالترحاب وكان له سابق معرفة برفيقي «مسكة» كما أنه قد سمع ببعض أخباري وبرحلتي إلى سوس ومكناس التي شاع أمرها..

كان الأمير «عمر أكجيل» على موعد مع القائمين على المرسى الذي بناه الهولنديون وسموه باسم والده الأمير «هدي» قائد المغافرة في حرب «شرببه»...كان غرض الأمير من زيارته طلب عون الهولنديين في إخراج الفرنسيين وحلفائهم من البروسيين من «قلعة آرغين» التي استولوا عليها وقاموا بأسر سكانها والتنكيل بهم، وبما أن الهولنديين في تنافس وحرب مع الفرنسيين فلقد اعتبر أن المصلحة تجمعهم، وإن كان كما قال لنا يتوجس الخطر من الجميع ولا يثق بأي من الوافدين الأوروباويين الذين دخلوا إلى البلاد برسم التجارة ومراميهم أبعد من ذلك..

وجدت الأمير «عمر أكجيل» فارساً مغواراً بعيد النظر، قليل الكلام، وقور السمت، كث شعر الرأس واللحية.. لا تفارقه بندقيته.. مشهور لدى الزوايا بالعدل وحسن السياسة، شديد على الظلمة والبغاة..

بعد صلاة العشاء بإمامة الفقيه «المختار» خلدنا إلى الراحة بعد أن اكتفينا بشراب حليب الإبل غذاء، وكان البرد قارساً رغم النار الموقودة للتدفئة.. وفي الصباح كان لقاؤنا المطول مع الأمير الذي كان شديد الهم بأوضاع البلاد وما يتهددها من مخاطر فتنة في الداخل وأطماع من الخارج.. قال لنا الأمير إنه أراد أن يقنع خصومه من القبائل المغفرية بتوحيد الصف وجمع الكلمة لكنهم آثروا وهم الاستقلال والحال أنهم فرادى كالبعير الأجرب لا السيد المتحكم، كما أراد أن يقنع الزوايا بتصفية القلب من

ضغائن الحرب فاختار أغلبهم مسلك المهادنة دون ثقة وإخلاص، واختار بعض آخر خيار العزلة والانكفاء..

في مجلس الأمير التقينا بأحد قادته وسفرائه إلى البلدان الأوربية هو «صمبة بن دلة» الذي أرسله «عمر أكجيل» مبعوثاً إلى ملك بروسيا «فردريك» في شأن العهد الذي بينه وتلك البلاد في أمور التجارة.. وكان شديد الانبهار بعظمة تلك البلاد البعيدة التي قضى شهرين في السفينة للوصول إليها.. كان غرض الأمير «عمر أكجيل» من العهد الذي أمضاه مع بروسيا هو قطع الطريق أمام تحكم الفرنسيين في تجارة البحر، فوعدهم بميناء «آرغين» الذي استخلصوه من الفرنسيين.. بيد أن حكم البروسيين لم يكن أحسن حالاً من سلفهم، نكث ولي أمرهم في آرغين العهود وأصبح يتعامل مع قراصنة السفن القادمة من بلاد السودان دون إذن من الأمير ولا إخبار له، فضاق به «عمر أكجيل» وبعث للملك سفيراً جديداً هو «أحمد منصور بن إبراهيم» الذي استقبله الملك «فردريك» في مدينة «أمستردام» ذات الشأن التجاري العظيم..

وأمام تعنت البروسيين استولى الأمير «عمر أكجيل» على قلعة «آرغين» وبسط ولايته الكاملة عليها قبل أن يسترجعوها عنوة منه، وهكذا قدم إلى حلفائه من الهولنديين طالباً العون والسند، مدركاً خطورة الوضع الذي خرج عن طور التحكم في الآن الذي تتربص به قبائل العرب المحاربة..

حضرنا بعد عصر اليوم الموالي جلسته مع القائد الهولندي الذي

أتى بعجوز من نصارى الشام مترجماً إلى العربية الفصحاء وكان متقناً للحديث بها رغم لحنه المتكرر في إعراب الكلمات وتصريف الأفعال.. امتدت الجلسة إلى ما بعد صلاة العشاء ولم تكن تقطع إلا للصلاة المفروضة.. وقد خرجنا بنتيجة مفادها أن الهولنديين يستغلون الوضع القائم أسوأ الاستغلال ويستشعرون عزلة الأمير والطوق المضروب عليه من كل الجهات.. فلم نغنم من اللقاء سوى تجديد العهد بالمزايا الممنوحة لهم في المرسى مقابل المكوس القليلة التي يدفعونها من القماش والبارود والقطع الذهبية..

طلب منا الأمير الرجوع إلى مضاربنا جنوباً وتواعدنا على اللقاء في تيرس بعد شهرين، عندما يخف البرد، وقال لنا إن أخاه «أعلي شنظورة» موجود في منطقة «شمامة» المحاذية لنهر صنهاجة، وقد كلفه بمهمة في مرسى «أندر» لدى الشركة الفرنساوية طلب منا مساعدته على إنجازها.

انطلقنا سراعاً على جمالنا ومعنا ثلاثة فرسان على الخيل بعثهم معنا الأمير للحماية، فالطريق ليس مأموناً نتيجة لكثرة اللصوص وقطاع الطرق.. توقفنا ثلاثة أيام في حي «الفقيه مينحنا» فألفيناه قد نزل على بعد ميل واحد من منهل «خروفة».. وكانت مناسبة عزيزة لتجديد العهد مع الأحباب والأصدقاء، وإن لم يكن أليدالي حاضراً فقد بلغنا أنه ذهب في إحدى رحلاته المألوفة إلى «بلاد هيبة» شرقاً..

وبعد أسبوع من السير لحقنا بأعلي شنظورة في أطراف شمامة

الشمالية، وكان يتأهب للعبور إلى «بودور» في موكب كبير من علية قومه وفرسان الإمارة مع مترجم من أصول ودانية يتقن اللغة الولفية وله إلمام بالفرنساوية التي تعلمها من إقامته الطويلة في «أندر».

كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بأعلي شنظورة وقد وجدته فتى طويل القامة، مفتول العضلات، قوي البنية، حسن السمت، قليل الكلام، فصيح العبارة، لطيف الحديث، يألف ويؤلف.. تلقاه لأول وهلة فإذا بك من أقرب خلانه.. أما صديقي «مسكة» فكان يعرفه منذ زمان طويل وبينهما ود متبادل..

أحسن أعلي شنظورة استقبالنا في مخيمه العامر، وأخبرنا أنه قرر السفر بعد يومين وقد ضرب له الفرنسيون موعداً في أطراف «أندر» في مكان يدعى «بوخمبابة» يسكنه بعض أتباع الإمارة من الجماعات السودانية.. فانطلقنا في الوقت المحدد، ومررنا في طريقنا بعشرات القرى الصغيرة التي يرتادها الصيادون، وكنا نتحاشى السير ليلاً لكثرة الحيوانات المفترسة وصعوبة الحركة في الغابات الكثيفة التي لم أرها من قبل.

بعد أيام ثلاثة من السير البطيء وصلنا إلى «قلعة بودور» التي يطلق عليها السكان المحليون لفظ «الدويرة».. فاستقبلنا في مدخلها ملك تلك الناحية من شمامة التي يسمونها بالوالو ويحمل لقب «البراك» واسمه «بوبكر سيري» وهو قائد محنك، واسع الاطلاع، سريع البديهة، تقرأ على وجهه الدهاء والمكر، وكان

محاطاً بكبار قومه ومن بينهم القاضي «سليمان» الذي درس العلوم الشرعية في بلاد إكيدي وأتقن اللغتين الصنهاجية والعربية العامية (الحسانية).. وفي حراسته قرابة عشرين رجلاً يحملون السيوف والرماح..

كان «البراك» يرتدي إزاراً قصيراً من القطن الأزرق ترصعه خطوط بيضاء وسروالاً واسعاً يمتد وراءه فيترك ذيلاً طويلاً، كما كان يمتشق خنجراً مرصعاً بالذهب والفضة، ويضع على رأسه طاقية كبيرة من قماش الإزار نفسه.

ومع أن اللقاء بين «الملك» والقائد «أعلي شنظورة» كان ودياً، إلا أن «بوبكر سيرى» الذي كان يواجه ثورات متكررة في بلاده أظهر الكثير من الحذر والقلق من احتمال انحياز الإمارة المغفرية إلى أحد منافسيه، خصوصاً أن لها حضوراً مكيناً في أطراف مملكته ولها أتباع مخلصون داخلها، كما أنه كان يتوجس الخطر من جماعة «التوبة» الذين يدعون إلى إقامة شرائع الدين وإجلاء النصارى من بلاد الإسلام بالسيف والسلاح، وهم في غالبهم من الشباب الذين تلقوا العلم من أمراء ودعاة «ناصر الدين» الذين تفرقوا في بلاد السودان بعد انتهاء الحرب..

أما القائد «أعلي شنظورة» فما كان يهمه هو عدم تقوي الفرنسيين بملوك «الوالو» لفرض شروطهم في تدابير التجارة على الإمارة التي كانت تمنحهم حقوقاً في مراسي البحر مقابل إتاوات معلومة للأمير وحاشيته.. وقد حرص «أعلي شنظورة» أن يفسر

لملك والو أن مصلحة الطرفين تقتضي التآزر والتحالف، فإذا انفرد الفرنسيون بأحد الطرفين حكموا على الطرف الآخر بالضياع والخسران قبل أن يخسر الطرف الآخر ولا يغنم شيئاً.. وكان دأب الفرنسيين هو الإيعاز لأهل والو ومن حولهم من أهل فوتة ومن وراءهم من بلاد السنغان أن المغافرة إنما يريدون أن يستولوا عليهم ويستعبدوهم ويقضوا على لسانهم وعاداتهم ويفرضوا عليهم ديناً خاصاً بهم ليس هو الإسلام الذي ألفوه وامتزج بأعرافهم وسلكه أسلافهم، ويوهموهم أن مصلحتهم في مد اليد للنصارى الذين سيحولوهم إلى سادة البحار والأمصار.. والحال أنهم يسترقون أولادهم ويستنزفون عضلاتهم ولا يعبؤون بمصائرهم.. أما سكان أهل الصحراء فيقسمونهم إلى زوايا متعصبين يأخذون الدين مطية للغلبة والسيطرة وعرباً متوحشين يمتشقون السيف لإهلاك الحرث والنسل.. أما هم الغرباء القادمون من الأصقاع البعيدة فيقدمون أنفسهم رسل سلم ومحبة وعدل وخير عميم، مع أنهم ينهبون ما في البلاد من خيرات مقابل بضائع هزيلة وينتزعون من الأمهات أبناءهم يرسلونهم في الأقفاص إلى بساتين صعاليك أوربة في فيافي الهند الجديدة..

اتفق القائد «أعلي شنظورة» مع الملك «بوبكر سيرى» على مرافقته إلى «أندر» للقاء الفرنسيين، واتفقا على وحدة الكلمة والهدف.. فانطلقنا في موكب مهيب من الخيل والثيران يتقدمه خليفة الأمير والملك الولفي، ومعنا الترجمان «القاسم» والقاضي

«سليمان»، وقدمنا إلى ضاحية «أندر» في أول العصر، ونزلنا عند حي «ألفا» وهو قرية صغيرة من الأكواخ الخشبية المتناثرة اتخذت إحداها مسجداً للصلاة، فدلفنا إلى مقر الإقامة التي أعدها بعض أتباع الإمارة، وكان استقبالاً بديعاً رأيت فيه لأول مرة رقص الأحباش بالعصا وأهازيج المطربين يرطنون بلغة لم أفهمها قيل لي إنها مدح وتعظيم..

قضينا الليل كله على ذلك المنوال وفي الصباح قدمنا إلى «بوخمبابة» وقد نصبت فيها خيام من خيام النصارى شاهدت مثلها في فاس ومكناس يقيم فيها سفراء للملوك الأوربيين الذين يفدون إلى السلطان في أمر افتكاك أسراهم.. وعند قدومنا أطلقت مدفعية الفرنسيين عدة طلقات تحية للوفد، وكان على رأس وفد الفرنسيين الذين استقبلنا «أندري بروي» الذي ولاه ملك فرنسا على الشركة الملكية الفرنسية في أفريقية التي أوكل إليها الإشراف على التجارة في المنطقة وإمضاء المعاهدات مع أمراء وملوك أهلها.

ألفيت «بروي» قصير القامة، دميم المظهر، أمرد الوجه، يعلو عينه اليسرى جرح غائر لعله من أثر الصبا، في حركاته تصنع واضح، لا يوحي بالثقة منذ أول نظرة.. وكان في رفقته قسيس يدعى «روزيرس» يدعي معرفة الإسلام والاطلاع على كتب الفقه المالكي، ومعهما مترجمان من العبيد الذين اختطفوهم صغاراً وفرضوا عليهم دينهم وبعثوهم إلى فرنسة لتعلم اللغة، وكان أحد المترجمين يتقن «الحسانية» لكثرة اختلاطه بتجار المنطقة من

«الدومنكاور» وهم من سكان ودان الأصليين الذين نزحوا إلى ضفة النهر من أجل تجارة الصمغ.

كان الغرض من زيارتنا هو مراجعة شروط المعاهدة التي أمضاها الأمير «هدي» من قبل مع الفرنسيين الذين لم يراعوا مضمون الاتفاق، بل حرضوا على الإمارة وقصدوا شق صفوفها وأغروا بعض القادة بالثورة والتمرد، وسعوا إلى فصل سكان شمامة وفوتا عن الصحراء..

تحدث «أعلي شنظورة» بوضوح لا لَبْس فيه عن الموضوع وأكد ملك الوالو على كلامه، في حين ذهب «بروي» إلى أن فرنسا تواجه منافسة جديدة من الممالك الإنغليزية والهولندية، وذلك ما يقيد حركتها في البلاد.. ذكر لنا «بروي» أن سلفه «شامبونو» الذي شهد حرب «شرببه» كاتب ملك فرنسا «ملك الشمس» طالباً منه أن يبعث جيشاً جراراً يستولي بالكامل على منافذ البلاد البحرية، ويسيطر على مسالك التجارة ومراكزها.. وكان من رأي «شامبونو» أن على فرنسا أن تزيح الملوك المحليين وتحرر سكان البلاد وتحملهم على الرقي والعلم بتنصيرهم وتعليمهم اللغة اللاتينية وإدخال الأنماط الجديدة من الزراعة في أراضيهم الخصبة التي لا يستغلونها إلا لماماً.. ولقد مات «شامبونو» في أندر قبل أن يبت الملك في مشروعه،.. قال لنا «بروي» إنه لا يرى فائدة من هذا المشروع ولا مسوغ له، فالمطلب اليوم هو تحصين الموقع الفرنساوي وتأمين مسالك التبادل التجاري وكسب ثقة أمراء

الصحراء وملوك السودان، بيد أنه ختم كلامه بالتلميح إلى النهي عن توثيق الصِّلة بسلطان مكناس الذي اعتبر أنه يطمح إلى الاستيلاء على الأرض وإخضاع سكانها..

لم نعلق على كلام «بروي»، وكان جلياً لنا أن القائد الفرنسي يخفي أكثر مما يقول، فلا نخال الفرنسيين تخلوا عن غزو البلاد والسيطرة على أهلها، وقد بلغنا تنافس الممالك الأوربية على ذهب ومزارع الهند الجديدة التي نكل بأهلها وأبيدوا شر إبادة، والتوجه الظاهر هو أن أحوال المعيشة في أوربة تقتضي التوسع في أسواق العالم جنوباً والتحكم في البحار وعلى الأخص «بحر الظلمات» الذي يسمونه «الأطلنطي» وهو اليوم ركن التجارة بين آفاق الدنيا غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً..

كانت مهنة «بروي» الأساس هي تمثيل «شركة الهند الفرنسية» وهي إحدى الشركات الأورباوية الثلاث التي تتقاسم التجارة الأطلنطية، أعني الشركة الإنغليزية ومقرها في مدينة «لندن» والشركة الهولندية ومقرها في أمستردام، أما الشركة الفرنسية فمقرها في «مارسيليا».. وقد أخبرنا «بروي» أن الصراع على أشده بين هذه الممالك لإحكام السيطرة على مفاصل التجارة في العالم كله ومن أهمها شواطئ الصحراء وجزرها.

تعشينا على مائدة القائد الفرنسي الذي أكد لنا أن اللحم الذي قدم لنا ذبيحة شرعية، وامتد الحديث إلى وقت متأخر من الليل، وكان على يميني القسيس «روزيرس» الذي يدعي معرفة الإسلام

وأحكام الفقه المالكي وينطق بكلمات قليلة من اللسان العربي تعلمها كما يقول في «حلب» ببلاد الشام التي أقام فيها مدة في صحبة البعثة التجارية الفرنسية.. ذكر لي القسيس أن الدول الأورباوية تتنافس اليوم على صناعة النسيج التي هي محور اقتصاد العالم الذي أصبح موحداً.. ومن هنا أهمية مادة الصمغ الذي تتنازع هذه الدول على التحكم في مسالك بيعها والاتجار بها... اقترح علي القسيس أن ألتقي بعالم نباتي من الفرنسيس اسمه «غاسندي» أرسلته «أكاديمية العلوم» ويعنون بالعبارة دار البحث والدرس الكبرى، صرف وقتاً طويلاً لدراسة شجرة القتاد أو «الأرورار» الصحراوية التي تنتج الصمغ العربي أو «العلك» حسب التسمية المحلية، وانتهى إلى أن أجود صمغ هو الذي يوجد في أطراف الصحراء الجنوبية بما توفر له من تربة وحركة ريح، فكان الأنسب لصنع القماش وأصلح لصناعة الأدوية..

لم يكن لدي الوقت ولا الهمة للحديث مع عالم النبات الفرنسي الذي كان يقضي جل وقته متنقلاً بين شمامة والسنغان، فاكتفيت بقليل المعلومات التي حدثني بها «القسيس» العجوز الذي لا ينفك يتحدث عن «حلب» ولحمها المشوي ونظافة أهلها ولطفهم.. ولم أكن أعرف عنها سوى أنها موطن الأمير المظفر سيف الدولة والفارس الشاعر أبي فراس الحمداني..

في اليوم الموالي أنهينا ما بدأناه من حديث مع الفرنساويين الذين كانوا حريصين أشد الحرص على تعويض ما لقوه من

خسارة في مراسي البحر بمراكز النهر التي كانت أكثر أماناً وأقل تكلفة، وكان التعويل على مترجمنا «القاسم» الذي له مكانة عالية في قومه وهم أهل السبق والذكر في تجارة الصمغ في محطة «تشكمبكمبة» التي يرتادها التجار من الضفتين..

أعطى القائد «أعلي شنظورة» للفرنساويين ما طلبوه من ضمان وعهد، وكتبت بخط يدي المعاهدة التي أمضاها الطرفان، فانتهت المهمة، وودعنا الفرنسيون بالحماس ذاته الذي استقبلونا به.. ومع ذلك لم يكن «أعلي شنظورة» راضياً بالتمام، فقد أدرك بقريحته وحدسه أن الفرنساويين يمنحونه ما يمنحون لغيره ويتعاملون معه بصفته مجرد طرف في لعبة لها أطراف كثيرون، بما يسمح لهم باشتراط ما يريدون والتنصل من تعهداتهم كلما تغير الحال وانقلبت الموازين، فالبلاد كلها في اضطراب وتقلب حال وضياع، ولا أحد بيده كامل القرار والسلطة..

مررنا لدى خروجنا من ندر ببعض القرى الصغيرة المتناثرة على مصب النهر، وكانت الحركة غير عادية فيها، حيث لاحظنا خلقاً كثيراً يتحرك في كل مكان، وخيام أورباوية منصوبة حد الضفة، ثم ظهرت لنا سفن وزوارق راسية، وسمعنا جلبة عالية.. قال لنا «البراك» إن ما نشاهده هو قدوم سفن باعة العبيد الذين يشترون الأرقاء ويبعثونهم في سفن كبيرة راسية بالبحر إلى الهند الجديدة، ويتعلق الأمر كما يقول بموسم حافل مشهود يأتي إليه الناس من كل بلاد السنغان وما حولها.. أشار «البراك» بيده إلى

أسوار عالية من الخشب والطين قال إن العبيد يجمعون فيها، تحت إشراف وحراسة سعاة وسطاء لهم صلات مكينة بالتجار الأورباويين الذين يمنحونهم منحاً سنية لهذا الغرض.. عندما اقتربنا من المشهد تجلت لنا حركة السوق الموسمية الغريبة التي تعرض فيها شتى البضائع من قماش وأثاث وسلاح وكؤوس وأوانٍ من الزجاج..

في المقابل يأتي باعة العبيد المقيدين كالوحوش فيتأملهم الوسطاء الأوربيون الذين يختارون صغير السن، سليم الصحة، فيدفعون فيه دريهمات معدودة ويرسلونه إلى الأصقاع البعيدة حيث غربة المكان والبشر..

علق «مسكة» على المشهد بقوله إن «الإمام ناصر الدين» كان أيام أمره قد حرم بيع العبيد للنصارى وحارب ما جرت به العادة من استرقاق الأحرار بحجج واهية، وكان يرى أن الرّق في بلاد الصحراء والسودان لا أصل له في الشرع لكون البلاد لم تفتح عنوة ولم تعرف إلا لماماً الجهاد الشرعي الذي هو باب الاسترقاق الأوحد الذي أقره الدين جرياً على ما كان عرفاً متبعاً في كل الملل والبلدان.. وكان «أعلي شنظورة» يوافقه الرأي، لكنه يرى أنه ما دام للأوربيين اليد العليا في تجارة البحار فإن تجارة الاسترقاق لن تتوقف، بل ستتمدد وتتوسع لحاجة الأمم الأورباوية إلى العضلات القوية الرخيصة في ما تعيشه حالياً من طفرة وغلبة..

انفضت رحلة الجنوب وعدنا سالمين إلى ربوعنا، فطلب منا

«أعلي شنظورة» المكث معه أياماً في انتظار «الأمير عمر أكجيل» الذي اقترب الموعد الذي ضربه لرجوعه، وكان قصدنا هو السلام عليه ثم الانطلاق إلى شنقيط قبيل موسم جني البلح «القيطنة» الذي يلتقي فيه الأهل ويتجمع فيه الأحبة ويطيب فيه السمر.

إلا أن رسول الأمير وصل سريعاً إلى «المحصر» (أي مقر الإمارة) ليطلب من أعلي شنظورة القدوم في كتيبة مسلحة إلى «أكادير دوم» التي اعتزم «عمر أكجيل» الاستيلاء عليها وإجلاء الهولنديين والروسيين منها من أجل وضع شروط جديدة للأوربيين الذين يرغبون في الإقامة بها.. لم يكن الموضوع سهلاً، ولم يكن أعلي شنظورة موافقاً على هذه الخطوة التي بدت له مغامرة غير محسوبة في مرحلة تواجه الإمارة مخاطر عديدة في داخلها حيث المجموعات المتمردة الخارجة على الطاعة وعلى أطرافها حيث قبائل العرب المنافسة، فضلاً عن خطر الشركة الفرنسية بما هي وكيل تلك الدولة التي لا تخفي أطماعها في السيطرة على منافذ الصحراء البحرية والنهرية..

صحبنا «أعلي شنظورة»، فلحقنا بالأمير بعد أسبوعين من السير السريع، فألفيناه على مشارف القلعة الأورباوية التي سيطر عليها بعد يومين من الحصار دون قتال، وأجلى من فيها من التجار والحرس والخدم، وخلف عليها أحد أتباعه ومعه بعض الفرسان الأشداء، ثم طلب من أخيه الرجوع إلى «المحصر» وأذن لنا بالعودة إلى مضاربنا، فرجعت إلى شنقيط، وقررت البقاء فيها

وقتاً طويلاً، بعد أن طلبت مني جماعة الحل والعقد أن أتقلد القضاء في المدينة خلفاً لوالدي الذي أقعده المرض.. ولم أكن راغباً في المهمة ولا مستعداً لها، لكن الأمور في بلادنا لا تتحدد بالإرادة والاختيار، بل لكل مساره الذي كتب عليه أن يسلكه.. وما دام ابن قاض تتوارث أسرته القضاء فلا بد أن يجيء اليوم الذي أتولى فيه هذه المسؤولية، وكأن الامتناع عنها يحدث خللاً في نظام الكون لا أحد قادر على تحمل وزره...

رضيت بالقضاء.. وجلست في مجلس الحكم، وكان الجهد ضئيلاً والعمل يسيراً، فليس من شأن الشناقطة التقاضي بالمعنى الحرفي للكلمة، وإنما يتخذون قاضيهم حكماً في نزاعات قليلة لا تتجاوز الاختلاف في مساحة بستان أو ملكية نخلة، وفي أحيان نادرة يكون النزاع في شأن زواج وطلاق وإن كان العرف إخفاء هذه الأمور حياء وكبرياء..

كنت قد تعودت على مهنة القضاء وابتعدت عن جلبة السياسة وحروب الأمراء وأطماع الأوروباويين، حين وصلتني في يوم شتوي قارس رسالة من صديقي «مسكة» تستعجل قدومي إلى بلاد «القبلة» وتخبرني بمقتل الأمير «عمر أكجيل» في موطن يدعى «معيطن إكليل» إثر مواجهة عنيفة مع بعض «عرب الساحل»، كما أخبرتني الرسالة بانتقال الإمارة إلى صديقنا «أعلي شنظورة»..

حزنت على الأمير الفقيد وقلت في رثائه قصيدة طويلة أذكر منها:

هو السيد الممتد في الناس ذكره

وفي البؤس كفاه وفي البأس قاضبه

يلاين مرتاضاً أريباً وينبري

هزبراً أبا أجر على من يغاضبه

فتى يهب الآلاف عفواً وتنكفي

مخافته الآلاف حين تحاربه

ثم عزمت على الرحيل متوجهاً جنوباً إلى حيث الأمير الجديد «أعلي شنظورة» الذي تولى الأمانة في ظرف قاس وأجواء مضطربة، فسبحان مقلب الأحوال وإليه المآل وعليه كامل الاتكال...

الفصل الرابع

كتب علي الرحيل مجدداً ولم أكن راغباً فيه ولا ساعياً إليه.. كنت قد ألفت مجدداً حياة شنقيط برتابتها، واجتهدت في أن أتخلص من آثار رحلة الغرب التي إن وسعت مداركي وحملتني على أن أرى العالم أوسع من مدينتي الصغيرة وكنت أخالها مركز الكون وواسطة عقده، إلا أنها زعزعت صلتي البسيطة بالأشياء ودفعتني إلى اقتحام المجهول وغير المعهود وأدخلتني عوالم لا قبل لي بها.. كما أن رحلتي الجنوبية كشفت لي أن ما نستشعره من عزلة وطمأنينة عيش في جبال إدرار الشاهقة ليس سوى أوهام مؤقتة، وأكثر ما أهمني هو وضع إمارة الجنوب التي كتب عليها أن تكون على ثغر خطير، فهي ركن مسالك التجارة الجديدة وما يترتب عليها من نحلة العيش وهيئة عمران، وهي واجهة غزو الإفرنج الذين لا يخفى على ذي عقل أنهم قد عقدوا العزم على التمدد والانتشار في أقاليم السودان وعيونهم على بلاد الصحراء التي لا مخرج لها من الهوان والمذلة إلا الاعتصام بعد الله بالدولة الإسماعيلية التي كتب عليها في هذه الفترة الحالكة أن

تكون خط الدفاع الأخير عن الغرب الإسلامي... وعلى الرغم من بطولات وأمجاد المولى إسماعيل، إلا أن الفتن في الداخل لم تزل تشتعل في الوقت الذي لا تتوقف حروبه مع ممالك الفرنج شمالاً.

وهكذا قدمت على صديقي الأمير أعلي شنظورة وقد لحقت به في مخيمه المضروب على أميال قريبة من البحر في موقع مهجور يدعى نواكشوط، لقيته مهموم الخاطر مشغول الفكر شاخص النظر، وحوله تحلق رجاله الأشداء ومستشاره الأمين صديقي مسكة...

ذكر لي مسكة أن ما يشغل الأمير هو خروج مجموعات عديدة على حكمه ومنها قبائل لها قرابة نسب وسابق مودة، فضلاً عن اشتداد خطر خصومه الشماليين والشرقيين، ودسائس الأوروبيين الذين يظهرون الود والخير ويضمرون الشر والكراهية...

كان رأي مسكة أن الوقوف مع الأمير الجديد واجب شرعي لا يجوز التفريط فيه، فقد مضى العهد الذي كان يجوز التعلل بإرث الحرب بين الزوايا والمغافرة للتقاعس عن نصرة الدولة الفتية، أما اليوم فالأمل كله معقود على هذا الأمير الهمام لتجنيب البلاد مخاطر الغزو الإفرنجي ومخاطر الفتنة التي تمزق أوصال أمة الإسلام في هذا المنكب البرزخي المعزول.. كان رأي مسكة الذي أوافقه عليه أنه يجب الحذر أشد الحذر مما يوسوس به بعض رؤوس الإفرنج من تجار العبيد والصمغ من تحريض على

الابتعاد عن الإمامة الإسماعيلية بذريعة واهية هي أنها تريد السيطرة على بلاد الصحراء وأقاليم السودان اللصيقة بها، والحال أننا في مركب واحد ولا نجاة لنا دون عون وإسناد هذه الدولة التي هي ما بقي في غربنا الإسلامي بعد ضياع الأندلس واستيلاء مملكة بني عثمان على إفريقية والمغرب الأوسط.. كنت وصديقي مسكة نتذاكر ما قاله شيخنا أحمد بن ناصر الدرعي من أن مدخل بلاد السودان هي صحراء الملثمين ومدخل الصحراء هي بلاد درعة والسوس، وأن حكم المغرب لا يثبت دون ثغوره الجنوبية، ومن ثم لا سبيل للفصل بين أضلاع هذا المثلث أي بلاد السودان وإقليم الصحراء وحواضر المغرب الأقصى حيث مكامن العمران والقوة..

ولحكمة لا تخفى كانت جل الدول الحاكمة في المغرب الأقصى من عهد المرابطين إلى العهد الإسماعيلي الحالي من أصول صحراوية بالمعنى الأتم الأوسع لهذه اللفظة.

لحقنا بالأمير بعد صلاة العشاء، وجلسنا معه على انفراد، فأفضى لنا بهمومه، وحدثنا أن أولويته في الوقت الحاضر هي القبض على قتلة أبيه والاقتصاص منهم ولم يكن يرى في الأمر صعوبة، إلا أنه يدرك انه لم يعد بمقدوره الحكم على طريق أسلافه الذين لم يعملوا على توطيد أركان الإمارة وتركوها قسمة بين ذوي الشوكة والشأن دون سلطان تنعقد له الهيبة وتتم له الطاعة المحض.

كان الأمير أعلي شنظورة يدرك بقوة أن ما يميز الأمير عن شيخ القبيلة هو علوه على العصبية النسبية وقدرته على بناء قاعدة ثابتة للملك وقبول كامل رعيته لسلطانه لا على سبيل الخوف والخشية، بل على سبيل التعظيم والهيبة.

قال لنا الأمير أنه لاحظ من رسائل ومعاملات رؤساء الإفرنج أنهم يخاطبون القائمين على الشأن في هذه البلاد بأوصاف الملك التي لا تنطبق عليهم لبساطة أمر الحكم هنا الذي لا يزيد على معنى الغلبة بالسيف، والحال أن الملك الحقيقي لا مناص له من رسوم وشعائر لم نتعودها أو نألفها رغم شطحات الشعراء ومبالغاتهم إلى حد أن أحد شعراء الحسانية وصف دولة والده على ضعفها وتمزقها بأنها أقوى من ملك هارون الرشيد الذي دانت له الأرضون...

كنت مبتهجاً لما لمسته في صديقنا الأمير من إدراك قوي بواقع الحال واطلاع تام على وضع البلاد والأقاليم المجاورة له، فضلاً عن ما عرفته فيه من حنكة وملكة قيادة، بما يؤهله دون ريب أن يكون حاكماً عظيم الشأن ناجح السعي.

بعد إقامة أيام ثلاث للراحة، رحلنا مع الأمير إلى حيث مضارب المحصر وكانت يومئذ قريباً من شمامة، ومع أن الوقت شتاء إلا أن الحر كان شديداً ومتصلاً ليلاً نهاراً، وهو ما لم أتعود عليه وأنا القادم من شنقيط حيث يشتد البرد شتاء ولا نعرف الحر ليلاً ولو في الصيف الذي تشتد فيه الحرارة الجافة التي نفرح لها

لما تؤدي إليه من إنضاج البلح والتمر، لكن ما شأن أهل شمامة بالتمر والبلح؟

أقمت على عادتي عندما أكون في المحصر في خيمة منفردة قرب مخيم الأمير، وكان يتولى خدمتي صديقي «أعمر» وهو شاب كثيف شعر الرأس وطويله، يحمل حول عنقه تمائم في أغلفة مزركشة على عادة تلك البلاد، ويدخن طول اليوم من قصبته التي يصنعها من عظام الغنم وفق طقوس دقيقة اشتهر بها في الحي.. فرح أعمر لقدومي وفرحت للقائه لما كنت أستطيب من حديثه الذي لا يمل رغم أنه في الغالب حديث لا مضمون له ولا قصد منه، فهو أقرب لصرف المحادثة والكلام المحض، إلى حد أني تساءلت أحياناً أين أضعه في أبواب الكلام والدلالة التي قعدها المناطقة والأصوليون وأرباب البيان والبلاغة.. وقد بدا لي أن كلام أعمر هو نوع من النظم الذي يشترك مع الشعر في الذوق والمجاز والإشارة لكنه غير مقفى ولا موزون ومعناه غير ظاهر بل غير مقصود أصلاً.. ومع ذلك كنت أستطيب كلام أعمر وغالباً ما قادني إلى الضحك والقهقهة رغم ما يطلب في الفقيه من وقار وعزوف عن اللهو والمجون..

في اليوم الثالث من إقامتي في المحصر جاءني رسول الأمير في الصباح الباكر، فوجدته في جمع غفير من بني قومه وقد تهيأ لركوب فرسه، فخلى بي على مسافة قريبة من رجاله الذين تهيؤوا مثله للرحيل وقال لي: بلغني أن بطوناً من قبائل المغفر الحليفة قد

اتجهت من الجنوب الشرقي لمباغتتنا بالقتال، وهدفهم السيطرة على مصاب التجارة على البحر واحتكار العلاقة بالأوروباويين الذين نتعامل معهم.. وقد تركتك في المحصر وهو مكان حصين لا خوف عليه، وحماته رجال أشداء من المغافرة ومعهم قوم مخلصون أكفاء من إخواننا من الوالو.. ولا أظن المعركة ستطول بحول الله، فابق هنا حتى أرجع إليك ونتدبر مستقبل أمرنا بعد عودتي.

رحل الأمير وجيشه الذي يزيد قليلاً عن خمسين رجلاً، وهو بمقاييس تلك البلاد وذلك الزمان جيش متوسط العدد مكتمل العدة، وبقي معي رجال قليلون يحيطون بمخيم الأمير ومنهم صديقي أعمر الذي كان يتباهى ببندقيته التي صنعها له أحد الصناع المعروفين في المحصر يطلق عليه «بوقادوم» ولعله ليس اسمه الأصلي وإنما لقباً يلمح إلى مهارته وسرعة إنجازه.

قضينا أسبوعين دون أن نعلم شيئاً عن المعركة الدائرة في منطقة تدعى بآمشتيل، وكنت أشغل نفسي ببعض التآليف المعلقة مثل كتاب ألفته في البلاغة وآخر في الحساب، كما كنت أقبل على قراءة مقدمة ابن خلدون وهو كتاب نفيس من الكتب التي أهداني السلطان إسماعيل وقال لي وقتها أن فيه قواعد العمران والملك وأسرار التاريخ فلا يستغني عنه أمير ولا عالم.

كنت خلال قراءتي لمقدمة ابن خلدون أتأمل في حال بلادنا وما تتسم به من ضعف وعجز في أساليب الملك والحكم، فأجد

في هذا الكتاب النفيس تفسيراً دقيقاً لما نعانيه من ضيق وشدة، فمع أن الإمارة المغفرية توفر لها شأن العصبية الذي لا غنى عنه لقيام الملك إلا أنها لم تتوفر لها قوة الدعوة ومستند العقيدة الذي يخرج السلطان من معنى الغلبة والشوكة إلى معنى الانقياد الطوعي والقبول الداخلي. كان رأيي أن أعلي شنظورة مؤهل أن يكون هو الأمير الجامع بين قوة السيف والشرع وهو القادر على بسط الأمن ورعاية الدين في هذه البلاد السائبة، ولذا وجب أن تجتمع حوله قبائل الزوايا المشتغلة بالعلم، وكان ذلك رأي صديقي مسكة، وهو ما سمعته من سلطان مكناس وشيخي الدرعي.

بعد أسبوعين بالتمام والكمال، هرع إلي أعمر مبتهجاً يصرخ بأعلى صوته: «لقد انتصر الأمير في المعركة وهو قادم على أبعد تقدير مساء الغد».. كنّا نستعد لصلاة العشاء في المصلى المسيج بأعواد الشجر، ففرح القوم أشد الفرح، وأطلقوا الرصاص في الهواء فرحاً بالأخبار السعيدة.

وفي مساء الغد قدم الأمير، وكنت في طليعة مستقبليه، وبعد أن دخل في خيمته انفرد بي فوجدته مهموماً رغم نشوة النصر، وسرعان ما بادرني بالقول: «لا تصدق أبداً ما يتردد في الحي من انتصارنا الحاسم على العدو، فالوضع أشد والحال أصعب، ما حدث هو أننا قضينا على الخطر الوشيك المباشر، لكن الخطر لا يزال قائماً بل لعله اشتد وتفاقم.. لقد علمت من عيوني أن جماعات شتى من خصومنا في الشرق والغرب قد تكتلوا

لمحاربتنا، كما أن القائمين على الشركة الفرنساوية في أندر أقنعوا بعض حلفائنا من وسطاء تجارة الصمغ من كبار أهل الوالو بفسخ المعاهدات التي أمضوا مع أبي.. وكما ترى أصبحنا محاصرين من كل زاوية، ولا أدري كيف سنواجه مستقبل الأيام.. لقد أردت أن أبعثك مع وزيري ميلود إلى مشايخ العرب في الشمال من أبناء عمومتنا من أجل إقناعهم بضرورة التكاتف معنا لمواجهة الخطر الحقيقي الذي يتهددنا جميعاً وهو استفحال الخطر الأورباوي القادم من الجنوب الذي يستهدف وحدة سكان هذه البلاد من عرب وصنهاجيين وسودانيين وعزلها عن منابعها في الشمال وامتداداتها في الجنوب والشرق».

خرجنا وقت الغلس أنا والقائد ميلود على جملين سريعي الخطى.. كان رجلاً فارع الطول شديد سواد البشرة، داكن الشعر، جميل المحيا، أنيق الملبس، وكان خبيراً في مسالك الصحراء وموارد المياه، وبالنظر لما تتسم به مهمتنا من سرية بالغة، كنّا نتجنب مضارب البدو، ونفضل السير في ظلام الليل والراحة في ضوء النهار وأساس غذائنا اللحم المجفف وحبات التمر التي لم تكن تفارقني، أما المياه فلم نكن نسرف في استخدامها لندرة زادنا منها المحمول في قربتين على جمل يرافقنا وكان الفصل شتاء والبرد قارس في الشمال.

بعد تسعة أيام من السير السريع المتصل قدمنا إلى مخيم أحد قادة مغافرة الشمال يسمى الفظيل بن شنان وكان يومئذ في منطقة

آمساكة على مسافة بعيدة من جبل آدرار، وقد شرح لنا أنه اختار لمخيمه هذا الموقع طلباً لمراعي الإبل وكان العام خصباً ولا يزال العشب الأخضر متاحاً للماشية..

كنت على معرفة سابقة بهذا الأمير الشهم الذي قابلته مرتين من قبل إحداهما في شنقيط التي زارها وصلى في جامعها وأكرم علماءها وأكابرها، فلما سلمت عليه خاطبني بالشنقيطي المغترب وسرعان ما اختلى بي وبرفيقي ميلود بعد أن أمر بإعداد أمور الضيافة والقرى وتخصيص منزل مناسب لنا. شرحنا للأمير لفظيل فحوى رسالة أعلي شنظورة وكان شديد الإعجاب بفتوته وشجاعته ورجاحة عقله كما كان يشاطره بوضوح لا لَبْس فيه ضرورة وحدة بلاد المغافرة واتفاقهم مع قبائل الزوايا لمواجهة المخاطر التي ذكرها أعلي شنظورة.

خرجنا من عند الأمير لفظيل فرحين مستبشرين، إلا أننا وجدناه في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع أعلي شنظورة، فلا تزال إمارته في طور التأسيس يصارع ضد ابن عمه عبد الرحمن بن حمو الذي استبد بالأمر، يحيط الأعداء بالإمارة من كل جانب، ولا تزال تخومها في الغرب والشرق غير مؤمنة.. ومع ذلك حملنا رسالته إلى الأمير التروزي تتضمن قبوله أي خطوة للتوحد والتكاتف من أجل درء المخاطر القادمة.

كان أصعب عقبة تواجه مراد الأمير أعلي شنظورة هي أبناء عمومته من البراكنة الذين يدعون الزعامة على مغافرة الجنوب

والغرب، ولا يقبلون أن يكون للأمير الشاب حكم مستقل عنهم، كما لا يرضون الدخول في دعوته لتوحيد البلاد الذين يتقاسمون السيطرة عليها مع أمراء أولاد مبارك وآل عثمان والترارزة وأبناء عمومتهم من أولاد دليم في الغرب.

كان أكثر ما يقلق أعلي شنظورة هو نجاح الشركة الفرنساوية الانفراد بكل طرف وحده لترتيب أمور تجارة الصمغ وموانئ تصديرها إلى أوربة، وقد بذل كل جهد في إفهامهم أن مراد الأورباويين ليس مجرد السيطرة على تجارة الصمغ التي يتوقف عليها صناعة النسيج الذي هو عصب هذه المدنية الجديدة التي حدثت عنها أعلي شنظورة حسب ما ذكر لي ابن عايشة في مكناس وهو الذي زار كبار البلدان الأوربية والتقى بأمرائها وفلاسفتها وتعلم لغاتها. كما أن أعلي شنظورة نفسه جلس طويلاً إلى سفير والده إلى ملك أمستردام أحمد منصور الذي حدثه طويلاً عن عظمة وغنى مدن أوربة الجديدة وما طوره الأوربيون من علوم جديدة أصبحت أساس فنون من الصناعة من شأنها أن تضمن لهم السيطرة على أركان العالم.

كنّا نتبادل الحديث في هذه الأمور العصية وقد التحق بِنَا رسول براك والو واسمه حمزة من أبناء إخوة أبي بكر سيري، يتقن العربية التي تعلمها على الفقيه مينحنا، بعثه عظيم الوالو ليخبرنا أن مدير الشركة الفرنساوية «بروي» فهم من حال بلاد المغافرة الذي لا يسر صديقاً ولا يسيء عدواً أن بإمكانه التنصل من كل عهوده مع أمراء

البلاد والسيطرة المباشرة على موانئ التجارة من خلال وكلاء محليين يدينون له بالولاء، وقد خيره بين الدخول في حلفه أو البقاء على عهده مع الترارزة وعندئذ سيطيح به ويستبدله بحاكم موال له. شرح أعلي شنظورة لرسول البراك أنه لا قبل له في الحال بمواجهة الفرنساويين وهو في كل الأحوال ينتظر أن يفسخوا العقد الذي أمضى معهم، بيد أنه ينصحه بالتظاهر بقبول شروط «بروي» في انتظار تحسن الحال وتبدل الظروف.

كنّا لا نزال في تدبر الوضع والتفكير في المستقبل؛ عندما باغتنا الخبر بأن القائد الفرنسي قد أمضى اتفاقاً جديداً مع بعض المنشقين عن الإمارة وأعلن أنه لم يعد يعترف بإمارة أعلي شنظورة، وفي الوقت نفسه أطاح بحليف الأمير أي البراك سيري واستبدله بأحد أبناء عمومته المنشقين عنه، فكانت ضربة مزدوجة أليمة تلقيناها ونحن نحزم أمتعة الخيام ونتهيأ للرحيل بالمحصر إلى منطقة آوكار شمالاً بعد أن اشتد الحر واستفحل خطر وبأس البعوض النهري.

في موكب الرحيل مشيت مطولاً مع الأمير وحدنا، وكان رأيه أن علينا أن نؤمن المخيم الأميري في مكان حصين، ونسعى إلى البحث عن مدد من الرجال والمال يسمح بمواجهة المخطط الفرنساوي الذي اتضحت أهدافه ومراميه. كان الأمير على وعي تام بأن الدولة الفرنساوية ليست كما يعتقد العامة محصورة في شركة أندر ولواحقها، وأنها مملكة عظمى تخافها ممالك أوربة

ولا تقدر على مواجهتها الخلافة العثمانية التي هي أقوى دول الإسلام اليوم. وقد كنت حدثت الأمير أعلي شنظورة كثيراً عن ملك فرنسا لويس الرابع عشر وعلاقته بالمولى إسماعيل الذي كثيراً ما تبادل معه السفراء الذين كانوا دوماً يرجعون إلى مكناس منبهرين بما لهذا الملك من قصور فخمة وما لعاصمته باريس من جمال ودقيق نظام.

قلت للأمير أني لا أرى سنداً يعتمد إليه بعد الله سوى السلطان المولى إسماعيل الذي تركته قبل سنتين شديد الاهتمام بحال الصحراء وبلاد السودان، وكثير السؤال عن أمور شيوخ المغافرة الذين يحمل لهم عظيم الود وواسع التقدير؛ كما حدثته عن حرص زوجته المغفرية الأميرة خناثة على وحدة واستقرار ذلك الإقليم الذي لا يزال والدها أحد قادته البارزين. كان رأي أعلي شنظورة أن أذهب برسالة منه إلى السلطان ونجله أمير تارودانت صديقي محمد العالم شارحاً حال بلاده وطالباً العون والإسناد، وكان رأيي أن نرحل معاً لمقابلة السلطان ونعرض الأمر بكامله على واسع نظره. قبل أعلي شنظورة رأيي بعد طول جدل، فاتفقنا على الرحيل فجر الأول من رجب يرافقنا الوزير ميلود وثلاثة من أقرب أعوان الأمير يحملون زادنا المتواضع من تمور ولحوم مجففة وقرب مياه وثياب قليلة وبعض الهدايا من بنادق وسيوف مذهبة مخصصة للسلطان وخليفته في بلاد السوس وخلف الأمير أخاه الشرقي بن هدي على المحصر فترة غيابه.

مررنا بمخيم الأمير الفظيل وكان قرب كنوال حيث يمضي الأمير موسم جني التمر في الصيف الذي اقترب، ففرح بمقدمنا وأمر بعض قواده بإطلاق الرصاص ترحيباً بِنَا، وبعد العشاء والمسامرة انفرد بأعلي شنظورة الذي أطلعه على فحوى مهمته وطلب منه مرافقته إلى السلطان، فأجابه أنه يبارك مسعاه ويدعو له بالتوفيق، لكن أمور الإمارة تقتضي وجوده حالياً في آدرار وإن كان لا يمانع في اللحاق به عندما تتهيأ الظروف.

ودعنا الأمير الفظيل وبعد من السير المتصل الذي لم نقطعه إلا لصلاة أو تزود بقليل من الطعام والماء مررنا بشنقيط في الهزيع الأخير من الليل، لم نبرح الجامع العتيق الذي صلينا فيه صلاة الفجر وجلست فيه قليلاً مع والدي الذي لم يعد يطيق الحركة إلا لماماً بل كان يكتفي بصلاة الفجر في المسجد محمولاً على بغل يقوده طلبته. غادرنا المدينة ضحى وصحبنا الركب السوسي الذي كان قد أنهى للتو رحلته التجارية الفصلية إلى شنقيط ووادان وكان يقوده محمود الزركي وهو تاجر معروف كثير المال وكريم اليد، صيته على لسان كل تجار تلك البلاد، كما أن بيته في واد نُون هو ملاذ كل المارين بذلك الإقليم.

كنّا نرافق الركب السوسي لكننا نحتفظ باستقلاليتنا؛ ننيخ جمالنا بعيداً قليلاً عن الجماعة، ونؤدي الصلاة جماعة بمفردنا، ونتناول طعامنا بمعزل عن رفقائنا وإن كنّا نتقاسم معهم الذبائح التي نشتري أو تقدم لنا في محطات طريقنا.. كان حديثنا متصلاً

عن أحوال البلاد وما تواجهه من مخاطر ومصاعب، وكان أعلي شنظورة يبسط الحديث في تاريخ المنطقة وأنساب قبائلها وهو العروف بها في أدق تفصيلاتها..

مررنا بواد نُون وقضينا ليلاليَ ثلاثاً في ضيافة محمود الزركي الذي قدمنا إلى قائد الإقليم الشيخ تاشفين فوجدناه يعيش في قلعة منيعة محاطة من جهات ثلاث بجبال منيعة، في حين تحيط قرى صغيرة متناثرة بالقلعة في جهتها المفتوحة حيث يمتد وادي غزير المياه تنتشر حوله البساتين الجميلة.. كان القائد تاشفين من أهم فرسان المنطقة ومن أبرز أعلامها، يتحدث بخليط من الحسانية أي عربية بني حسان التي يتكلم بها جل سكان غرب الصحراء والصنهاجية السوسية التي لا تختلف كثيراً عن ما ندعوه في بلادنا لغة آزناكة وهي تصحيف عامي لكلمة صنهاجة.

بالغ الشيخ تاشفين في إكرامنا، وزاد تعظيماً لنا عندما عرف مقام الأمير أعلي شنظورة ومكانتي من خليفة السلطان ونجله محمد العالم، وكان من أقرب أعوانه وأصفيائه.. وعندما ودعنا بعث منا ثلاثة من أقرب مساعديه المسلحين حرصاً على سلامتنا من قطاع الطريق الذين كثروا في السنة الحالية نتيجة لموجة الجفاف العاتية التي ضربت بوادي المنطقة.

وبعد أيام خمسة من السير وصلنا إلى تارودانت وكان الوقت عشاء فبقينا خارج أسوار المدينة في نزل يؤمه تجار السودان، وقضينا فيه ليلتنا ومنه انطلقنا بعد أن ودعنا أعوان الشيخ تاشفين

إلى حيث قصر خليفة السلطان. دلفت في الطريق على بيت صديقي العالم الأديب محمد الرسموكي وكان ملاصقاً لقصر الخليفة، فأخبرته بمهمتي وعرفته برفيقي الأمير فانطلق معنا مسرعاً إلى قصر خليفة السلطان، وكان الوقت ضحى فيه يخرج الأمير إلى الناس ويستقبل أكابر وأعيان مدينته.

جلسنا أنا وأعلي شنظورة في قلب المجلس ننتظر الأمير الذي لم يتأخر طويلاً عن القدوم، وكم كانت فرحته كبيرة عند رؤيتنا المفاجئة، احتضنني طويلاً واستبشر كثيراً بقدوم أعلي شنظورة الذي وصله خبره قبل اللقاء به من تجار واد نُون وسجلماسة الذين يمرون بتارودانت أحياناً.

أنشدت الأمير قصيدتي التي نظمت في مدحه وقد بدأتها بالقول:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا

وسمها بحور الآل تسبحها سبحا

ومنها:

فتى يسع الدنيا كما هي صدره

فأضحى به صدر الديانة مندحا

ومن هو غيث أفضل الأرض روضه

فلا يظمأ الأوي إليه ولا يضحى

اهتز الأمير لقصيدتي وطلب إعادة إنشادها مرات عديدة، ورد علي ببيتين جميلين:

هذا الحبيب الذي قد جاء من بعد

والشمس قد أثرت في وجهه أثرا

فقلت يا عجباً للشمس في قمر

والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

بعد السلام وحسن الاستقبال، عقد مجلس العلم والأدب بعد صلاة العشاء الذي كنت أحضره خلال إقامتي سابقة في تارودانت، وفيه تعرفت على العديد من أدباء سوس الظرفاء وهم الذين تميزوا بقرض الشعر وحفظه، وكان محمد العالم يقدرهم أشد تقدير ويتعهدهم بالعناية والإكرام. وقد سمعت الأمير يقول أنه تولى نيابة السلطان في حاضرتي المغرب الكبيرتين فاس ومراكش فما وجد مثل أهل سوس أدباً وظرافة، وكان يقول إن لأهل سوس تقاليد وأعرافاً يختصون بها في العلم، وهي التي أخذ بها أهل الصحراء وحواضر بلاد شنقيط.

كان أعلي شنظورة يحضر مجلس العلم والشعر ويستطيبه وربما شارك فيه، وكانت له جلسات على انفراد مع الأمير محمد العالم أحضرها وحدي، يجري فيها الحديث المستفيض عن أحوال بلاد المغفر وما يتهدد تلك البلاد من فتن ومخاطر غزو الإفرنج الذين أحكموا السيطرة على تجارة البحور، وبيدهم اليوم

من عناصر القوة ما لم تعرفه هذه الأنحاء من آلة وأداة حرب ونمط تدبير.

طلب منا الأمير البقاء معه عدة أيام إلى أن يعود رسوله الذي بعث لوالده السلطان يطلب منه الإذن لنا للمثول أمامه وعرض أمرنا على جنابه الشريف، وقد رجع بعد أسبوعين ومعه الإذن وأمر خليفته وابنه بمرافقتنا للقدوم عليه في مكناسة حرسها الله.

خرجنا في موكب مهيب تحرسه مئات الفرسان الأشداء ومررنا بمراكش وسلا وقدمنا إلى مكناس ضحوة فوجدنا في استقبالنا بعض حاشية السلطان يتقدمهم وزيره الأكبر أبو العباس اليحمدي وكان من أقرب أعوان الملك إلى الأمير. أخبرنا الوزير أن رجاله المرابطين على الأسوار عاينوا مقدمنا من بعيد، فطلب منه السلطان الخروج إلى أبواب المدينة لاستقبالنا، وقال لنا إن المولى إسماعيل سيشرفنا باللقاء بعد صلاة العشاء وقراءة صحيح البخاري في قصره العامر المعروف بقصر النصر، فأوصلنا إلى قصر الضيافة وخرج مع الأمير محمد العالم إلى حيث لا ندري.

جلسنا طوال يومنا في بيت الضيافة، وقد قدمت لنا أطيب الموائد من ذبائح وثريد وحمام مشوي وأنواع خضراوات وفواكه بما لم نعهده في بلادنا ومصرنا.

وبعد صلاة العصر جاءنا رسول الوزير وقد طلب تهيئة الحمام لاغتسالنا، وأمر لنا بلباس أنيق من جلابيب وعمائم وعطور إفرنجية استعداداً للقاء السلطان ليلاً، وبعد أن أكملنا الاستعداد

انطلقنا في موكب محروس إلى الجامع الملاصق لقصر النصر، فصلينا العشاء مع السلطان، وحضرنا قراءة صحيح البخاري وشرحه الذي كان يقوم به شيخنا عمر الحراق على أحسن وجه.

وبعد ختم المجلس بالدعاء للسلطان، انطلقنا إلى القصر على الأقدام يتقدمنا الأمير محمد العالم والوزير اليحمدي، ودلفنا إلى قاعة الملك الفسيحة فوجدنا السلطان جالساً على سجاد أحمر ومن حوله الحرس ورجال البلاط وقد عرفت منهم قاضي القضاة العياشي المكناسي والحراق والوزير الشاعر عبد الحق السحيمي.

أذن لنا السلطان بالمثول أمامه، وصافح الأمير أعلي شنظورة بحماسة قبل أن يصافحني بالحرارة نفسها، قدمنا له هدايانا من بنادق مذهبة فتلقاها بقبول حسن، وخاطب ابنه محمد العالم بالقول: «مرحباً بضيوفك المكرمين»، فأنشد الأمير محمد العالم مرحباً بِنَا بيتين هما:

مكناسة الزيتون فخراً أصبحت

تزهو وترفل في ملاء أحمر

فرحاً بعبد الله نجل محمد

قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر

استحسن السلطان البيتين وأنشدته قصيدة دبجتها في مدحه وذكر جميل شمائله ومفاخره على عادتي في المثول أمامه، وقد ختمتها بفحوى مهمتنا على سبيل الإيحاء والإيجاز لا التصريح

والإطناب. صرف السلطان كبار رجال حاشيته بعد اكتمال مأدبة العشاء، وقد لاحظت أن السلطان لم يتناول من المائدة العامرة بكل أصناف الأكل إلا لقيمات قليلة من الأرز والحمام قدمت إليه في أوان من نحاس أصفر مع كأس كبير من الماء، كما لاحظت انه كان يطعم بيده أحد أولاده أو أحفاده الصغار جرياً على ما عرف به من جمع بين حزم الملك ورحمة القلب.

انفرد السلطان بوفدنا الذي ضم الأمير أعلي شنظورة ووزيره ميلود وكنت ثالثهم، وقد أحاط به ابنه وخليفته في بلاد سوس محمد العالم ووزيره اليحمدي واثنين من قادة جنده لا أذكر لهما اسماً... شرحنا للسلطان بالتفصيل مهمتنا ووجدناه على اطلاع جيد على أحوال بلادنا وما جاورها من أرض السودان. قال لنا السلطان إنه عندما زار تيرس قبل أعوام والتقى قادة المغافرة طلب منهم الاتحاد واجتماع الكلمة وكان مدركاً أن كل ما قام به من إطفاء الفتن ومواجهة ثورات وتمرد البغاة في مملكته الشريفة لن يؤتي أكلاً ما دام حال بلاد الصحراء على ما هو عليه من فوضى وضياع، وقد أصبح الخطب اليوم أصعب مع دسائس وأطماع الأورباويين الذين لا يخفون مبتغاهم في التحكم في منافذ القوة والغلبة التي هي اليوم شواطئ البحور ومصاب الأنهار التي عليها الاتكاء في نمط التجارة الجديدة.

وعدنا السلطان أنه سيتدبر أمرنا بعد يومين، وطلب منا الجلوس مع سفيره إلى ملك فرنسا وواليه في تطوان علي بن عبد

الله الريفي المقيم أوانها في مكناسة لغرض كلفه به المولى إسماعيل، وكان الهدف من اللقاء إطلاعنا على ما غاب عنا من أمر الفرنسيس وعلاقتهم بالمغرب الأقصى.

كان الريفي يحسن لغة الفرنسيس التي تعلمها على تاجر من مرسيلية في طنجة أيام اشتغاله بالتجارة قبل أن يتولى إمارة الشمال، وقد كلفه السلطان بمهمات عديدة في عاصمة المملكة الفرنساوية باريز والتقى مراراً بالملك لويس الرابع عشر، بل نقل إليه طلب السلطان الزواج من بنته تأكيداً لمواثيق السلم بين الدولتين.

كان أكثر ما يهمنا في حديثنا مع الريفي مرامي الفرنسيس في إقليمنا، وقد شرح لنا أن الملك لويس الرابع عشر الذي يطلق عليه «لويس الأفريقي» يريد أن ينافس الإنغليز والهولنديين على مصادر ومسالك التجارة الجديدة، وهو مدرك أن من يظفر بالسيطرة على جزر البحر الأطلنطي ومصاب نهر صنهاجة يضمن التفوق على خصمه، وتتهيأ له أسباب الغلبة التي هي اليوم في أساسها غلبة في نحلة المعاش وتجارة العبيد لا غلبة دين ومذهب. وكان رأي الريفي أن الفرنسيس لن يفرطوا في جهد للوصول إلى موانئ التجارة في شواطئ بلاد سوس رغم ما يتظاهرون به من مودة وسلم، فقراصنتهم منتشرون على نطاق واسع، وقد أسرنا الكثير منهم وبادلناهم ببعض أسرى المسلمين مراراً. ولقد خلص الريفي إلى أن المطلوب اليوم هو جمع الكلمة

ورص الصفوف لمواجهة هذا الخطر الذي يهدد المغرب الأقصى بكامله.

في اليوم الموالي وكان يوم الأربعاء طلب منا السلطان الحضور إلى قلعة الجند وهو اليوم الذي يخصصه كل أسبوع لاستعراض جيوشه وتفقد مخازن السلاح والبارود ومصانع السيوف والبنادق، وقد هالتنا هذه العدة العجيبة ومنها بعض البنادق غير المألوفة عندنا أخبرنا قائد الجند أنها صناعة هولندية جديدة. عرفنا أن السلطان يوزع أسبوعه بدقة بين يوم يخصصه لصلة الرحم والالتقاء بالأقارب هو يوم الجمعة، في حين يخصص السبت للصيد والأحد والثلاثاء للبت في المظالم والاثنين لتعليم الرماية وتفقد شؤون الجند وتدريب الجيش، أما الخميس فهو يوم مخصص للنزهة والاستجمام.

بعد حضور حفل استعراض الجند، أخذنا مضيفنا الوزير اليحمدي إلى الخزانة الإسماعيلية وهي مكتبة عجيبة البناء غزيرة المصنفات، جمعت لها مختلف الكتب في كل الفنون، ومنها قسم كامل من أنفس كتب أهل الأندلس استطاع تهريبها من قرطبة وغرناطة بعد ما أصاب تلك البلاد من نكبة تدمي القلب ويعجز اللسان عن وصفها. ومما أثار إعجابي اللقاء في الخزانة بشاب اسمه ماريو قدمه له اليحمدي أنه من الفئة التي يطلق عليها روم إسبانيا تسمية الموريسكيين وهم قوم بقوا في مواطنهم بالأندلس بعد نكبتها واجتهدوا ردحاً من الزمن في الاحتفاظ بدينهم ولو في

السر قبل أن يكرهوا على التنصر أو القتل، ومنهم قلة قليلة نجحت في الهروب إلى المغرب الأقصى ومنهم هذا الشاب اللبق الذي يتقن اللسان اللاتيني مع العبرية، وقد كلفه السلطان بتتبع ما يستجد من كتابات جديدة في الفلسفة والعلوم مع ترجمة المفيد الضروري منه، وأرسله مع سفيريه ابن عايشة والريفي إلى باريز ولندن لهذا الغرض، وقد عرفت من ماريو أن الدول الأورباوية وإن أصبحت تعلي من شأن لغاتها الخاصة إلا أن اللاتينية لا تزال هي لغة التأليف في العلوم والفلسفة وإن كان الأمر في تحول وتبدل في المدى القريب.

في اليوم الموالي وكان يوم خميس جاءنا رسول السلطان بعد صلاة الفجر بالقرب، فقدمنا إليه وكان برفقته صديقنا الأمير محمد العالم وأخبرنا أن الأميرة خناثة تشارك في مجلسنا من وراء حجاب على عادتها في عدم التكشف للجماعة. قال لنا السلطان بصوت جهوري أراد الأميرة أن تسمعه بوضوح: «لقد قلبت الأمر من أوجهه المختلفة واستشرت أصحاب الرأي والمشورة وقادة الجند، فانتهيت إلى ضرورة مدكم بمحلة مناسبة تساعدكم في النصر على أعدائكم وتحميكم من مخاطر الفتنة والفوضى، أما أمر الفرنسيس فهو أكبر وأخطر ولا أظنكم قادرين في الوقت الراهن على مجابهتهم لكننا نتابع الأمر ولن نتردد في التدخل في الوقت المناسب، لكن لتدركوا جيداً أن لا مستقبل لكم دون اتحاد الكلمة أعني أمراء بني حسان ومن معهم من الزوايا وبقية

الأقوام ومعهم أمراء السودان». تدخلت الأميرة خناثة من وراء حجاب فرحبت بِنَا وقالت إنها تقترح على السلطان أن يكون الجيش الداعم للأمير أعلي شنظورة من قبائل بني حسان ومعقل وعرب سوس وتوات لأنهم أقرب إلى أهل تلك البلاد لساناً وعادات وأقدر على صبر أجوائها، فاستحسن السلطان المقترح وأمر ابنه وخليفته بتنفيذ المقترح باستشارة قواد وشيوخ القبائل المعنية.

وقد اعتبر السلطان أن النصر في الحرب ليس كافياً لبسط الحكم وإنشاء الدولة، فلا بد من علامات للإمارة تعرف بها ينقاد لها الحليف ويهابها الخصم وتنعقد بها الطاعة لدى الرعية، وقد أمر السلطان بمد الأمير أعلي شنظورة بطبل كبير مجلد بالجلد الفاخر أراده مظهراً لمعنى الحكم يضرب وفق قواعد دقيقة في أوقات الحسم من حروب وأعياد واستقبال لكبار الضيوف من ملوك وأمراء وسفراء، وبالإضافة إلى الطبل منحه سروالاً أبيض يكون خاصاً بالأمير لا يرتديه غيره في إمارته حيث السراويل سوداء داكنة السواد من القماش الغيني الذي يبيعه تجار الأقمشة الأوروبيين.

ودعنا السلطان الشريف مولاي إسماعيل وسرنا في ركب تعلوه رايات التوحيد يتقدمنا الأمير محمد العالم، وواصلنا السير ليالي حتى قدمنا تارودانت عند مغيب الشفق، ونزلنا في دار الضيافة والتحق الأمير بقصره المنيف. في الصباح الباكر أرسل

الأمير كبار قادته إلى شيوخ قبائل بني حسان ومعقل وأعراب سوس طالباً مده بكتيبة ترافقنا إلى الصحراء، وكنا في انتظار رجوع رسل الأمير نلتقي به كل ليلة ونسامره بالشعر والأدب ونرتاد مجالسه العلمية النضرة.

وبعد قرابة شهر كامل من الإقامة في تارودانت اكتمل عدد الجيش المرافق لنا بسلاحه وخيله، وكان خليطاً من الفرسان الأشداء يزيدون على خمسمئة رجل، فودعنا الأمير شاكرين وعزمنا السير في آخر الليل متجهين إلى بلادنا عبر واد نُون، متجنبيْن المدن والمخيمات الكبرى، فمررنا بجبال آدرار دون دخول قرى وقصور المرتفعات والسهول، وبعد عشرين يوماً وصلنا المحصر، وكان يومئذ في منطقة «فاي» في مأمن من غارات الأعداء.

احتفى الحي بالأمير وبالجيش الوافد فضربت الدفوف وأطلق الرصاص واجتمع رجال الحي ونصبت الخيام لاستقبال الضيوف الجدد ونحرت الجزر لإطعامهم، ولم يكن أهل تلك البوادي قد تعودوا مثل هذا الجيش بخيله وسلاحه.. وكان بالفعل من الخارق مرور الركب بكل تلك المفازات دون أن ينكشف أمره ويظهر خبره.

وما أن طلع النهار حتى انتشر في الآفاق الخبر، فجاءت القبائل مبايعة، متزلفة للأمير وقد ظهر من الجلي للجميع مقدار قوته وصلابة جيشه الذي لم يعد مجرد أقوام من عشيرته وحلفه، بل هو جيش منظم يدين بمحض الولاء له. تتالت الوفود على

الأمير طيلة شهر كامل، وقد غبت عن مخيم الأمير خلال تلك الفترة للسلام على أعمامي وأبناء عمومتي في مخيمهم وكان أوانها على مسافة قريبة من المحصر. عندما رجعت لمخيم الأمير وجدت نظام الملك قد تعزز وصادف وجودي وصول سفراء عديدون من شتى مناطق البلاد المغفرية يحملون رسائل الود للأمير المظفر ومن بينهم وفود من تيرس رافعة شعار السلم والمصالحة بعد عهود من الخلاف والاقتتال.

أظهر أعلي شنظورة الاستعداد للم الشمل والصفح وأعلن للجميع أن هدفه هو حماية الصحراء من الفتن ومن الغزو الإفرنجي الذي بدت نذره جلية، ولا يمكن الوقوف دونه إلا بالتآزر ورص الصفوف..

اعتنى الأمير بعد الفراغ من استقبال الوفود وأخذ بيعة الرعية من شيوخ قبائل وعلماء دين بتوطيد بلاط حكمه، فعين مسعود العبلي على فرق جنده، وكلف أمبارك العتامي ببيت مال الإمارة، وعهد إلى سليمان الرزكي بشؤون البلاط وما يتعلق به من أمارات ورسوم، أما ميلود وزيره المقرب فقد كلفه بما يخص الصِّلة ببقية الأمراء وشيوخ العرب من المغافرة وغيرهم وأعاد تعيين الفقيه المختار بن أشفاغ موسى في القضاء. ولا يخفى ما لهذا النظام الدقيق من تأثر بنظام الملك في الدولة الإسماعيلية، كما أنه أقطع بعض القبائل أراضيَ عينها لها لضبط حركة الانتجاع والزراعة ومنها قبائل تاشمشة التي منحها إقليم إكيدي الواسع.

استأذنت الأمير في العودة إلى شنقيط لاستئناف القضاء في المدينة العتيقة والتدريس في جامعها الشريف خصوصاً بعد ما وصلني من خبر انتقال أبي محم إلى دار البقاء خلال رحلتي في الشمال، فوصلت إلى بلدتي في ليلة اثنتي عشرة من شهر ربيع الأول وقد وجدتها في احتفال سعيد بالمولد النبوي، وهو من الأحداث القليلة التي تخرج المدينة من رتابتها وسير حياتها الذي لا يتبدل ولا يتخلف.

ومع أني قضيت شهوراً طويلة خارج المدينة، إلا أني لم ألمس أي تغيير مسها سوى تناقص أعداد المصلين في الجامع العتيق أو على الأقل من أعرف من رواد المسجد الذين توفي العديد منهم وإن عوضتهم وجوه شابة سرعان ما تعرفت عليهم في حلقة الدرس، ومعهم فتيان آخرون من آفاق أخرى قدموا لأخذ درس البيان والمعاني وفق النظم الذي نظمته خلال إقامتي في مكناس وبلاد سوس لتقعيد هذا العلم الذي لا استغناء عنه لصقل قرائح الشعراء.

علمت وأنا في شنقيط من صديقي محمود الزركي أن السلطان مولاي إسماعيل أرسل محلة من خاصية جنده للوقوف مع أمير أولاد مبارك هنون بن بهدل الذي أحكم سلطته على أرض باغنة من بلاد السودان كما زاره الأمير أعلي ولد محيمد من رؤوس البراكنة وأبناء عمومة زوج السلطان الأمير خناثة، وكان يطلب عون السلطان على أعلي شنظورة لكن المولى

إسماعيل طلب منه الصلح مع أميز الترارزة لما فيه مصلحة بلاد المغافرة.

كان من الواضح من خطط السلطان أنه يربد تثبيت أركان الدولة المغفرية في ارتباطها بالمملكة الشريفة درءاً لما اعتبرها مخاطر محدقة بالغرب الإسلامي بكامله من ممالك أوربة التي توفر لها من أسباب القوة ما لم يتوفر لها من قبل، وأصبحت ترى أن منعتها تقتضي الانتشار في ما وراء البحار وبصفة خاصة بحر الروم الذي يفصل بين المغرب الأقصى وأوربة وبحر الظلمات الذي يطلقون عليه الأطلنطي، وهو الذي تعاظم الاهتمام به بعد وصولهم للهند الجديدة.

بلغني أن أعلي شنظورة بعد أن صالح عرب الشمال اتجه إلى آفطوط ودخل في حروب متصلة مع أبناء عمومته البراكنة، واتفق معهم على حدود يلتزم بها الطرفان، ثم اتجه جنوباً إلى بلاد الوالو وحاصر حليفه السابق الساتيكي أي الملك بوبكر سيري الذي رجع للسلطة بمساعدة الفرنسيس الذين كانوا أزاحوه من قبل ثم أرجعوه للحكم فأصبح عوناً لهم، وقد سعى ملك والو إلى فك الحصار فأرسل ابنه مختار كاكو إلى المولى إسماعيل طالباً النجدة، لكن السلطان أخبره بسابق عهده لأعلي شنظورة، وانتهت الحرب بهزيمة بوبكر سيري وتولية بوبو موسى مكانه وهو الحليف المقرب من أعلي شنظورة.

ولأجل الفراغ لشؤون الإمارة، ترك أعلي شنظورة أساس محلته

في بلاد الوالو حيث عرفوا بغرمان هناك وهي عبارة تصحيف للرماة على غرار رماة الدولة السعدية الذين كان لهم الشأن الأعلى في تنبكتو وأحوازها. وبفضل حنكة وحكمة أعلي شنظورة وحسن تدبيره تحول جيش الإمارة من عدد محدود من فرسان العشيرة إلى جيش منظم من ألف وخمسمئة مقاتل ما بين مغفري وسوسي وسوداني، بما ضمن استقرار الحكم وسريان السكينة والهدوء في الإمارة.

كنت لا زلت في شنقيط وقد ألفت مجدداً المقام فيها وتعودت الدور الذي كتب علي القيام به من تدريس وقضاء، حين جاءني رسول من أعلي شنظورة يطلب مني الإسراع في الحضور من أجل السفر معه إلى جزيرة تيدرة للقاء الحامية الفرنسية التي سيطرت على المدينة بعد حروب طويلة مع الهولنديين ومن قبلهم البروسيين من مملكة براندبورغ الذين أرادوا الاستيطان فيها.

وصنا إلى الجزيرة فاستقبلنا قائد الأسطول الفرنسي «جان بابتست دوكاس» وهو رجل ستيني مفتول العضلات قوي البنية الجسمية، في عينه مزيج من القسوة والمكر، سبق له أن كان مدير الشركة الفرنسية في أندر التي أطلق عليها الفرنسيون اسم ملكهم فأصبحت «سان لويس» ووالياً لملك فرنسا في بعض ولاياته وهو اليوم يدير الشركة الفرنسية الإسبانية التي يطلقون عليها «شركة غينيا واسينتا» وقد عهد لها بالإشراف على تجارة العبيد والصمغ.

أخبرنا المترجم وهو شاب من أهل أندر اسمه جوب تعلم الفرنسية خلال خدمته منذ الصغر في بيت أحد تجار الفرنسيس،

وتعلم الكلام الحساني على يد تجار الصمغ أن دوكاس قد احتل الجزيرة باسم الملك لويس الرابع عشر الذي يمتلك بحكم حمايته الحربية ثلث أسهم الشركة، وقد أصدر قراراً نافذاً بمنحها ثلاثة عشر ديناراً ذهبياً مقابل كل رأس من العبيد الذين تختطفهم من قراهم، واشترط أن يكون الذكور من المراهقين المرد والإناث من الفتيات ذوات النهود القائمة، والمطلوب هو أن تتدارك فرنسا الإسبانيين والإنغليز والهولنديين السباقين في تجارة العبيد وقد أصبح لهم بالفعل ما يزيد على مليون عبد في مستوطناتهم في الهند الجديدة التي يدعونها أيضاً بأمريكة.

كان هدفنا من اللقاء بدوكاس هو الاحتفاظ بشروط المعاهدة التي وقعنا تباعاً مع البروسيين والهولنديين والفرنسيين، وقد أصبح من البديهي أن الاحتفاظ بالقلعة وطرد الأورباويين منها أمر ممتنع، فأقصى ما بمكن الظفر به هو الإقرار بحقوقنا في الموقع والتعويض عن الاستخدام، مع اشتراط عدم استرقاق مسلمي الضفة. أمضى أعلي شنظورة الاتفاق مع مدير الشركة الفرنسية الذي يطلق عليه سكان الضفة تسمية «بروم أندر» أي صاحب أندر أو عظيمها، وقد وجدناه بعد نقاش مستفيض مستعداً للوفاق والتفاهم أكثر من صاحبنا بروي الذي قيل لنا أن ملك الكايور «لات سوكابي فال» قد أسره ولم يفرج عنه إلا بفدية كبيرة، ففضلت الشركة الاستغناء عنه واستبداله بشخص أكثر حذاقة وأفضل أخلاقاً.

كان من الواضح للأمير أعلي شنظورة أن الهولنديين الذين احتفظ بعلاقة جيدة معهم خرجوا من السباق على الشواطئ البحرية والضفة النهرية التابعة للإمارة، وأن السباق أصبح محصوراً بين الفرنسيس والإنغليز. ولقد ذكرني أعلي شنظورة بما سمعناه في مكناسة من الوالي الريفي سفير السلطان لدى لويس الرابع عشر من أن اهتمام هذا الملك الجبار ببلاد السودان الغربي لا يفهم إلا بربطه بخطته المعلنة لتفكيك الخلافة الإسلامية في الشرق والقضاء على سلاطنة بني عثمان، وقد أعلن نفسه حامياً للمسيحيين الشرقيين، وأرسل بعثات كثيرة للشرق للبحث في الطريق الأنسب لإعلان الحرب على الأستانة هل يكون من بوابة مصر أو الشام أم البلقان، ولا يخفى أن عزل السودان عن بقية الغرب الإسلامي موهن لبلاد الإسلام في غربها ومؤذن بالانفراد بشرقها. أما الإنغليز كما يرى الريفي فإنهم وإن اتفقوا مع الفرنسيس في الهدف؛ إلا أنهم حزموا أمرهم فدخلوا من باب الهند حيث إحدى دول الإسلام الكبرى في الشرق إلى جانب الدولة الصفوية الفارسية والدولة العثمانية، وقد أصبح لهم نفوذ قوي من خلال شركتهم التجارية التي صارت دولة كاملة، إلا أن عينهم على الأناضول وبلاد الشام، ووجودهم على ضفة نهر غامبيا بعد تعثر مسعاهم في تيدرة وشمامة ليس منفصلاً عن أهدافهم البعيدة في الشرق.

كان شعورنا هو أننا الحلقة الأضعف في سفينة تتقاذفها الأمواج، فمنذ ضياع الأندلس قبل أكثر من قرنين، وتفكك

ممالك الإسلام في الصحراء وبلاد السودان وآخرها دولة الصونغاي، أصبح الأمل معقوداً على قيام سلطنات أو إمامات تسد فراغ الملك وتحفظ بيضة الدين ومصالح الناس في هذه البلاد بإسناد من إمارة المؤمنين في الغرب الإسلامي أي المملكة الإسماعيلية الشريفة، وهذا هو مقصد أمراء تنغلة الفلانيين والأمراء المغافرة، إلا أن الحلم كبير وما باليد قليل.

كنت لا زلت في رحلتي مع أعلي شنظورة وقد وصلنا فاي الذي أصبح شبه عاصمة مستقرة للمحصر، عندما وصلتني رسالة عاجلة من الأمير محمد العالم تستعجل قدومي لبلاد سوس من أجل عرض لا يقبل التأجيل، فودعت الأمير وانطلقت مسرعاً إلى تارودانت.

الفصل الخامس

مررت بشنقيط يومين كانا كافيين لرؤية الأهل والأصدقاء وطلبة العلم وزيارة المقبرة التي لا يذكر الجامع العتيق إلا ذكرت معه، فهو الأصل وهي الخاتمة، وهي المرجع والمدد وهو الحاضر والمظهر.

المقبرة في شنقيط كما بينت لك من قبل ليست مجرد موطن للموتى الذين عاشوا في المدينة، بل هي ذاكرتها الحية والمنبع الذي تستمد منه سمتها المميزة وجوهرها الخاص.

لا أعرف لماذا خالفت ما تقرر في السنة الشريفة من إيجاز في زيارة القبور التي شرعت للاعتبار والدعاء.. جلست طويلاً أمام قبر أبي وقبر شيخي ابن بلعمش ومررت بعدهما على المجذوب عبد الرحيم في معزله، وكأني كنت أستلهم منهم الجواب المنشود على رسالة أمير السوس العاجلة التي لا أعرف من مضمونها شيئاً، أو لعلي كنت آخذ عهداً ضمنياً من أعيان المقبرة بالعودة إلى نقطة النهاية المكتوبة على كل سكان المدينة،

فيكون لي قبري فيها أي علامة وجودي وسمة كدحي في هذه الدنيا الهائجة التي عركتني وعركتها أكثر من أي فرد في هذه المدينة التي لا تعرف رحلات الصعلكة والمغامرة، بل لا تعرف من الرحلات إلا سفرة التجارة القصيرة وسفرة الحج الواجبة على المستطيع... وكنت بالفعل عقدت العزم على حج بيت الله هذه السنة بعد أن شغلتني أمور السياسة والحروب عن أداء الواجب الذي لا ينبغي لفقيه قاض مثلي أن يتخلى عنه.

انطلقت من شنقيط فجر رمضان مع ركب واد نون، وكان قصدي هو المرور بتارودانت ولقاء أميرها، ومن ثم الانطلاق إلى رحلة الحج التي تتطلب من هناك شهوراً ستة من السير المتصل...

كان السير في رمضان بطيئاً بحكم الصوم الواجب، ولم نكن نترخص في الفطر رغم السفر على عادة أهل سوس وهم من أكثر عباد الله التزاماً بهذه الفريضة الشاقة..

وصلنا سهل سوس، وبتنا ليلتنا في انتظار الفجر لدخول المدينة المحصنة بالجبال، فدخلنا من الباب الذي يسمى بباب الزركان وهي تسمية تلمح إلى إحدى القبائل الصحراوية المعروفة، وقد تنكبنا عن قصد باب القصبة، وكان مغلقاً بالجند والفرسان المسلحين على غير عادته في هذا الوقت من النهار.. مررت على بيت صديقي الأديب العالم الرسموكي القريب من الجامع الأعظم، فوجدته في فناء داره محاطاً ببعض أهل بيته ففرح لمقدمي وأمر بعض جلسائه بحمل متاعي الخفيف ولم يكن

يزيد على جبة وبرنوس فاسي وبعض الكتب التي اصطحبتها معي للقراءة في السفر...

وعلى الرغم من استبشار وترحيب صاحبي الرسموكي، إلا أني قرأت في وجهه لمسة حزن وانكسار، سرعان ما ذكر لي سببها.. أخبرني الرسموكي أن الأمير محمد العالم قد رضخ لدعاة الفتنة من السوسيين فأعلن خلع والده السلطان وتسمى بإمارة المؤمنين، وغزا مراكش حاضرة الملك الكبرى فانتزعها عنوة، وهو محاصر فيها من أخيه المولى زيدان، والبلاد في محنة كبرى وعسر شديد.. وقال لي الرسموكي أن الأمير أرسل إلي من أجل أن أساعده في حمل شيوخ الزاوية الناصرية على الانضمام إليه والدخول في ولايته، فلا يزالون محجمين عن الفتنة، وفي ذاكرتهم ما جرت فتنة ابن محرز على البلاد من دمار، وما أفضى إليه أمر الزاوية الدلائية من انهيار إثر انشغالها بأمر السياسة ومنازعتها الحكم لأهله.

طلب مني الرسموكي أن نلتحق بالأمير في مراكش عبر المسلك الوحيد المؤمن في الطريق الجبلي، وكان اتفاقنا على أن نقنعه بالعدول عن الفتنة ومصالحة السلطان قبل فوات الأوان، فالمعركة خاسرة لا محالة ولا مخرج من هذه الورطة إلا الاستسلام وطلب الصفح..

سلكنا الطريق الجبلي الوعر وقدمنا على الأمير بعد ليال من السفر الشاق لم أعد أذكر مدتها، فألفيناه في قصر الحكم في

مجلس حرب مع قادته، وقد بلغ منه التعب مبلغاً بعيداً.. انفردنا بالأمير الذي كان مرفوقاً بوزيره الفقيه الأديب محمد بن حسن الإيلالي، فوجدناه على عناده ممتنعاً عن أي مصالحة واستسلام، عازماً على مواصلة الحرب، أدركنا أنه مال إلى الرأي الخاطئ الذي يرى أن خصوصية بلاد جزولة من حيث الموقع والسكان وأعراف العيش تهيِّئُها للانفِصال والاستقلال عن بقية المغرب، وما هو إلا وهم اعتقده كثيرون فكانت عاقبته خسراناً... ولقد خبرناه في بلاد شنقيط عندما اعتقد كل أمير أن بمقدوره إقامة مملكته الخاصة به في منكب ضيق من الأرض فما حصد سوى الهوان والضعف ولو أن شيوخ المغافرة اتحدوا والتقت كلمتهم لكانوا حصناً منيعاً.. شرحنا للأمير أن بلاد سوس دون حواضر المغرب في الشمال والوسط ليست سوى إقليم معزول مجرد من القوة، كما أن دولة المغرب الأقصى لا يمكنها التفريط في هذه البلاد والاستغناء عنها لما تقرر أنها مدخلها إلى منابعها وأذرعها في الجنوب في الصحراء والسودان.. والأمر اليوم جلل، بعدما ظهر من أطماع الممالك الأوربية الصاعدة في التحكم في مسالك التجارة الجديدة في البحر، وليس من قبيل المصادفات أن سفراء هذه الدول قد أقبلوا على الأمير المتمرد ووعدوه بصنوف الدعم والعون...

طلب مني الأمير أن أكون رسوله إلى الزاوية الناصرية وأعطاني كتاباً لشيخي أحمد بن ناصر الدرعي، فتظاهرت بقبول

المهمة ورحلت في اليوم الموالي إلى تمكروت.. وأنشدت عند ظهور معالمها بيت جرير:

لما لحقنا بظعن الحي نحسبها

نخلاً تراءت لنا البيض الراعبيب

قدمت إلى الشيخ الجليل في زاويته وكانت كما عهدتها تعج بأهل المطالب والحوائج وطلبة العلم وسالكي طريق أهل التصوف، فاحتضنني الشيخ طويلاً وسألني عن أحوال أهل الصحراء ومريديه وأصحابه في تلك البلاد... ولعله فهم من حال وجهي ولحن قولي ما هممت بقوله، فأرجأ الحديث إلى ما بعد صلاة العشاء وأوراد اليوم.. فأخذني إلى مكان منعزل في بيته، وبعد عشاء دسم بادرني بالقول:

«لا شك أنك على علم بما جرى للبلاد من أمر الفتنة والحروب التي أهلكت الحرث والنسل.. ولقد تتالت رسل الأمير محمد العالم طالبة منا العون، فأجبتها بجواب واحد لا يتبدل، وهو أننا في شغل عن أمور السياسة والحكم، منقطعون لله في هذه البلدة الوعرة، وقد اعتزلنا الفتنة واكتفينا بالتضرع للمولى سبحانه أن يكشف هذه الغمة ويعيد للبلاد السكينة والطمأنينة... وأني لأعرف قربك من الأمير ولا أشك أنك توافقني الرأي، فأرى أن يكون لك يد في حمله على إطفاء الفتنة والدخول في السلم والمصالحة، وأنا على استعداد للذهاب إلى السلطان

مولاي إسماعيل لضمان الصفح والعفو عن الأمير قبل أن يقضى الأمر ولات حين مناص».

كشفت للشيخ عن مهمتي التي كلفني بها الأمير، وقلت له إني أتفق معه في كل كلمة قالها، ولم يكن عزمي محاولة إقناعه بطلب الأمير، ولا أظن أن سانحة المصالحة والسلم قائمة، فكل ما أريده هو الابتعاد عن العيون والإخلاد إلى الزاوية ردحاً من الزمن حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وسأتظاهر للأمير بأني أواصل مهمتي وأبذل الوسع في إقناع شيوخ الزاوية واستمالتهم لمراده..

أذن لي الشيخ بالمكث في تامكروت وخصص لي بيتاً ملاصقاً لخزانة الزاوية، وفيها من أمهات كتب العلم وعيون الأدب ما لا عين رأت... طاب لي المقام وهدأت النفس، وكنت أكتفي بإرسال رسائل مختصرة للأمير لطمأنته وتأكيد متابعتي لتكليفه...

بعد شهر من الإقامة السعيدة ما بين كتب الخزانة والصلاة في مسجد الزاوية وتلاوة الأوراد فيها، وصلني خطاب عاجل من الأمير يطلب مني سرعة الرجوع لأمر لا يقبل البطء، وقد قال لي الرسول الذي حمل الخطاب أن الذي حرر الكتاب هو صديقي الرسموكي، وبعد أن أمضاه الأمير وضع في نهايته ثلاث نقاط طلب الرسموكي من مبعوث الأمير أن ينبهني إليها، وكنت ألفته من أهل الحزم والحذاقة...

استوقفتني النقاط الثلاث، وعرفت أن لها دون شك دلالة ومعنى، فتأملتها مستحضراً ذاكرتي الشعرية، وأول ما خطر ببالي قول الشاعر:

ثلاثة تجلو عن القلب الحزن

الماء والخضرة والوجه الحسن

فصرفت البال عن هذا المعنى، وتذكرت قول الشاعر:

ثلاثة ليس لها أمان

البحر والسلطان والزمان

ففهمت مقصود الرسموكي، وأدركت أنه يشير لي بأن الأمير يريدني بسوء ويحملني وزر تخلف شيوخ الزاوية الناصرية عن عونه... ففاتحت شيخي أحمد في الموضوع وكان رأيه أن أسرع الرحيل عائداً إلى الصحراء الشنقيطية، وما كان الأمر سهلاً ولا متاحاً في تلك الأيام العصيبة، وانتهى الرأي إلى أن أخرج باكراً في ركب خاص رتبه الشيخ إلى نواحي سجلماسة وفكيك، على أن ألتحق بركب حجاج تلك البلاد في الطريق إلى بيت الله الحرام والروضة النبوية الشريفة..

ركبت ظهر جمل أهداه لي الشيخ مع ثلاثة أنفار خبيرين بمسالك الصحراء ووصلنا بعد ليال من السفر إلى مدينة سجلماسة وهي واحة كبيرة في منقطع الجبل، يمر بها نهر غزير المياه، تمتاز بنخلها الكثير وزرعها الوفير، وهي إلى ذلك كله بوابة الصحراء

والسودان وكثيراً ما سمعت من أسلافنا في شنقيط أنها كانت إلى عهد قريب مركز التجارة الأكبر في بلاد المغرب ومحج تجار شنقيط وودان وتيشيت وولاتة وتنبكتو وحواضر السودان..

وسكان سجلماسة خليط متناسق من القبائل الصنهاجية والأسر الشريفة والقبائل المعقلية والهلالية مع مجموعات الحراطين، وهي تصحيف للفظ الحراثين الذي يدل على نمط عمل هؤلاء القوم ذوي البشرة السوداء الذين يشتغلون بأمر الفلاحة وغرس النخيل، بما يدل على تعدد وتنوع أصول أهل سجلماسة.

أقمنا في سجلماسة أيامنا ثلاثة في بيت تاجر غني من البلدة اسمه محمد البوعلي وهو من أتباع الطريقة الناصرية، وقد حملت له كتاباً من الشيخ أحمد بن ناصر، فأكرم وفادتنا، فرجع رفقائي بعد أن أمنت الطريق، وصحبت بعد ليالي الزيارة القافلة المتجهة إلى مدينة فكيك.

وجدت فكيك واحة كبيرة تتناثر فيها قرى مشتتة من قصور بديعة البنيان، وهي معروفة بجيد تمرها وكثرة ثمارها وجودة ثيابها، ولها مثل سجلماسة صلة مكينة بحواضر الصحراء والسودان، فمنها تنطلق القوافل وتتبادل عروض أهل الحضر والبدو في الصحراء المغربية الفسيحة.

أقمت في الزاوية الناصرية عند القاضي الفقيه محمد حامد

الدرعي وهو من مريدي الشيخ محمد الصحراوي رحمه الله الذي تعرفت عليه خلال إقامتي الأولى في تامكروت.

ولست ذاكراً لك محطات المسير بتفصيلها، فالذهن قاصر عن تذكرها، بعد أن طال الزمن ووهن العظم، إلا أني أستحضر مرورنا بأبي سمغون وزيارتنا ضريح الولي الذي سميت باسمه البلدة، ثم الأغواط، قبل أن نحط الرحال في مدينة بسكرة وقد هالني روعة واتساع مسجدها وطول مئذنته، كما بهرتني جودة الثمار وكثرة البساتين والآبار، وقد أخبرني أعيان المدينة أنها ذاقت الأمرين من ظلم ولاة الأتراك وغزوات الأعراب فانتشر سكانها في الأنحاء والمداشر..

مررنا بمزار الصحابي الجليل سيدي عقبة بن نافع في أسفل جبل الأوراس، وصلينا في المسجد الذي أقيم عليه، وأقمنا ليلتين في هذه البلدة المشهورة بجودة التمور.

وبعد أيام متصلة من السير الحثيث وصلنا طرابلس وهي مدينة كبيرة عامرة بالناس وكل أنواع الخيرات، أسوارها عالية وطرقها فسيحة وأهلها تجار كرام أهل ضيافة واعتناء بالغريب. وكان الشيخ أحمد بن ناصر قد أعطاني كتاباً لصفيه وأحد خاصيته هو الشيخ سعيد الحساني، فألفيته في جامع الحاج إبراهيم في أطراف المدينة فصحبني إلى بيته وأكرم وفادتي، وحرص على اشتراء راحلة من أجود أنواع الإبل الطرابلسية مع زاد وفير لحملي ضمن القافلة الكبيرة المتجهة للحج عبر مصر.

وإن عجبت لشيء فأعجب لمصر، إنها فعلاً بلاد لا تنقضي عجائبها ولا يمكن وصفها، فهي العالم جمع في واحد، وفيها من الغرائب ما لا يدركه الحس ولا الخيال، فإن أردت العمران لا أروع ولا أجمل من مساجدها وقلاعها وقصورها، وأن أردت المعاش فلا ألذ وأطيب من مأكولاتها ولا أرخص من ثمارها، وإن طلبت العلم فهي مركز المعارف والعلوم، وبها من المكتبات والخزائن ما يعجز اللسان عن وصفه.

ولقد أدركت أسلافنا الشناقطة يقولون إن أسوار مصر مكتوب عليها «يا داخل مصر هنا ألف من نوعك» سواء كان الداخل تقياً صالحاً أو سفيهاً طالحاً أو تاجراً ثرياً أو فقيراً معدماً. ولعل أصل هذه الحكاية في تاريخ ابن خلدون بقوله إن كلما تخيل المرء إدراكه في مصر وجد ما هو أبعد من خياله.

دخلنا القاهرة، ونزلت في حارة المجاورين قرب الأزهر الشريف، وهو حي مليء بطلبة العلم والغرباء ورواد المدينة الكثر الذين تستهويهم هذه المدينة الخارقة.. بعد زيارة مقام السيدة نفيسة ورأس سيد الشهداء الحسين، زرت قبر الإمام الشافعي ومررت بقبور أئمة المالكية ابن القاسم وأشهب وخليل صاحب المختصر وشيخه المنوفي، وزرت أقطاب التصوف ابن الفارض وابن عطاء الله والبوصيري صاحب القصائد المديحية الشهيرة.

صحبني الفقيه أبو ماضي الخلوتي إلى جامع الأزهر الشريف الذي زاره جدي القاضي وتتلمذ فيه على إمام المالكية في عصره

علي الأجهوري صاحب الشروح الشهيرة للمختصر والرسالة.. وقد التقيت بأحد آخر طلبته وهو الشيخ أحمد المنوفي الذي يفسر القرآن الكريم ويشرح الحديث الشريف في أحد أروقة الجامع العتيق.

سألني الشيخ المنوفي عن شنقيط التي سمع الكثير عنها وقد عرف بأنها من مدن الإسلام السبعة الكبرى، وكان سؤاله الأساس عن ما اشتهر به أهلها من قوة حافظة وسرعة استيعاب لغوامض العلوم حسب ما شاع في المشرق وذاع عن القوم...أخذني المنوفي إلى درس شيخ الأزهر محمد النشرتي المالكي الذي كان يلقيه في المدرسة الأفبغاوية وكان يومها درساً في أصول الفقه، كما صحبني في إحدى المرات في زيارة لعميد السادة البكرية في داره الفسيحة على بركة الأزبكية. ومررنا بدار المحكمة التي هي بيت القضاء التركي وهي غاية في الإتقان والاتساع ولها بساتين في منتهى الجمال.. ومع أن المنوفي كان فقيهاً ورعاً متين الدين إلى أنه كان يترخص في السماع فأخذني إلى بولاق، وجلسنا على الأرض لشرب القهوة وماء النيل الذي يقال أنه من أنهار الجنة الأربعة، وحضرنا مجلس طرب لمغنين يضربون آلات الجنك والعود والرباب.. ولم أكن قد ألفت هذه المعازف في مدينتي شنقيط التي لا تعرف من الترفيه عن النفس إلا جلسات الأدب ومسامرات الواحات...

في خاتمة زيارتي للقاهرة مررت بقلعة الجبل وهي مقر الوزير

التركي الذي خلفه السلطان العثماني والياً لمصر واسمه رجب باشا، وهي قلعة عجيبة مكتملة بقصورها ومساجدها وحماماتها، وفيها قابلنا أمير الحاج المصري المكلف بأمر الحج وقيادة الركب المصري إلى أرض الحرمين وقد نسيت اسمه، فأكرمنا وأمر بتسهيل مهمتنا بمرافقة وفد الحجيج المصري، وكان خلقاً عظيماً من شتى أصناف الناس..

ولست ذاكراً على طريق أصحاب رحلات الحجيج مثل شيخي أحمد بن ناصر وشيخه العياشي كما يدعوه تفاصيل ومحطات رحلة الحج، فذلك ما لا يتسع له المقام ولا تسعفه الذاكرة..

وأكتفي بالقول أنا مررنا في طريق الحجاز بمدينة السويس وهي قرية كبيرة مطلة على بحر القلزم يجتمع فيها الحجيج من كل صوب متجهين إلى جدة أو رابغ التي هي ميقات المغاربة وأهل الشام ومصر، ولذلك اتجهنا إلى رابغ فوجدناها مدينة عذبة الماء وطيبة الهواء، آبارها كثيرة ونخلها منتثر في كل مكان.. جل حركتها في موسم الحج، فمنها يقتني الحجيج لباس الإحرام وزاد الإقامة، وفيها جمالون ماهرون يحملون الناس مقابل دراهم الذهب والفضة إلى مكة المكرمة.

لا أحتاج إلى أن أذكر لك رحلة المناسك من طواف وسعي ووقوف ومشاعر منى، فذلك من الأمور المعروفة التي لا تحتاج لبيان وسردها من التطويل الذي لا مسوغ له...

كل ما أذكره هو أنني نزلت ببيت أحد الشناقطة المقيمين منذ أمد طويل في مكة في حي الشبيكة في الناحية الغربية لمكة المكرمة، وهو حي عريق يقال أن الصحابي خالد بن الوليد دخل منه البلدة المحرمة يوم الفتح ولا يزال مسجده قائم في الحارة التي جل سكانها من أهل الشام والمصريين وبعض أهل المغرب... كان الشنقيطي الذي يسمى أبيجة من خاصية أصدقاء أبي وقد أدركته مسناً طاعناً في العمر وإن كان لا يزال نشطاً قائماً بخاص شأنه، يدرس القرآن الكريم ومتون المقدمات لأطفال الحي، وله زوجة من الفلانيين الذين يسمون في بلاد الحجاز بالتكارنة وهي تسمية تشمل كل سكان بلاد السودان الغربية، كما أن تسمية الشناقطة تطلق على سكان غرب الصحراء من واد نون إلى نهر صنهاجة وتنبكتو. كنت أخرج قبل صلاة الفجر إلى الحرم المكي وأظل فيه إلى ما بعد صلاة العشاء، فأرجع إلى بيت أبيجة حيث ملتقى كل الحجاج الشناقطة وهم إذاك خمسة أفراد من بينهم ثلاثة من أهل ولاتة وواحد من بادية القبلة وآخر من أهل الركيبة، وكنت الوحيد القادم من شنقيط تلك السنة والسبب هو ما أصاب الطريق الشمالي من نكبة إثر الفتنة السوسية التي سدت مسالك الاتصال والترحال، فلم يبق للحجيج القادمين من الصحراء إلا الطريق الشرقي الذي يمر عبر تنبكتو وغدامس وجنينة وبلاد سنار ثم الحجاز.

وكعادة أسلافي من الشناقطة بل قل عامة المغاربة، لم تكن رحلتي للحج لأداء المناسك وحدها، فالحج بالنسبة لنا أهل

الصحراء كما سبق أن ذكرت لك هو أكثر من مجرد شعيرة من شعائر الإسلام... إنه يعيد بناء الإنسان ويفصل بين طورين من أطوار وجوده.. فلا يبقى هو هو بعد أدائه هذه الشعيرة التي كأنها فرضت لحمل المؤمن على محاسبة نفسه وتجديد نمط سلوكه ومنشطه، وهو إذ يتخلص من ثيابه ليلبس ضروري اللباس وأبسطه إنما يتلخص من غرور الحظوة ووهم الجاه والقوة، وحين يبيت في عراء منى يتحرر من حجاب الدفء المضلل وحين يطوف بالبيت العتيق يربط الصلة بمبدأ الزمن في انبجاسه الأول فيزيل عن عينه غشاوة التتابع والتبدل التي هي من أوهام العقل... الحج يتيح الفناء في زمن الغيب والمطلق حين يعجز البشر عادة عن ضعف أو جبن، عن اقتحام قيود الدهر فيشهدونه في معناه الحق الذي عناه الحديث بالقول إن الدهر هو الله.

والحج من وجه آخر هو ما يسمح لنا سكان الصحراء المعزولون في منكب بعيد من الأرض، مقطوع عن بلاد الله الأخرى، أن تختلط بالناس في ما لهم من تنوع واختلاف في اللون واللغة والمنشأ والمذهب، وقد ألفنا التماثل والتشابه حتى عدونا نسخة مكررة من شخص واحد، فضاق الباع عن تقبل الخلاف وقبول الرأي المخالف... الحج يوسع العقل والمدارك ويفتح الذهن ويربي النفس على السماحة والإنصاف...

والحج إلى ذلك كله مدرسة كبرى، تتعلم فيها ما لا تتعلم في أروقة المدارس، فهو ملتقى أهل العلم ومجنى فوائد المعارف،

ومظنة الظفر بالكتب والآثار والأسانيد والروايات... فلا يكاد يذكر في قطرنا عالم له شأن إلا مر بالحج... والدليل هو جدي القاضي عبد الله الذي جدد لأهل البلاد درس الفقه وحمل أصناف الكتب الجديدة ومنها أمهات كتب الأدب والبلاغة التي لولاها ما برعت في قرض الشعر حتى اعتبرني أهل تلك البلاد شاعرهم الأول...

إلا أن الحج لا يكتمل إلا بزيارة المدينة المنورة والسلام على نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.. بل أننا نحن المغاربة نرى أن الزيارة وإن كانت سنة لا فرضاً واجباً عند الفقهاء إلا أنها بلغة أهل القلوب والإشارة ركناً مكيناً لا يتم الحج دونه..

وإذا كان الحج مظهر عبودية القهر في أدق وأشمل معانيها، فإن زيارة المدينة المنورة هي مظهر الرحمة الربانية في أجمل معانيها.. في جوار الروضة الشريفة يستشعر المرء دلالة الاصطفاء والتكريم ويتذوق رحابة اللطف ويمتلئ قلبه بالمحبة الصادقة، وليست الرحمة إلا محبة واصطفاء، ولذلك كانت سبب الخلق والإيجاد ومدار الرسالة الخاتمة التي هي رسالة الرحمة المهداة للعالمين...

وهكذا حين قدمت للمدينة بعد رحلة شاقة وطويلة، انتهى النصب والتعب وقد دخلت من باب البقيع، ونزلت عند رجل من أفاضل أهل فوتا يسمى هاشم الفلاني يسكن في دار فسيحة على

قرب من باب السلام الذي دلفت منه إلى المسجد الشريف والقبر المنيف.

لست بقادر على أن أصف لك لذة القدوم وفرحة اللقاء والأنس في هذا المكان الذي تشعر فيه أنك خارج الحدود والمسافات في صلة مفتوحة مباشرة بالمطلق والأمد اللامنتهي... وليس الذوق في هذا الباب مما يكشف بل يطوى ويكتم..

في بيت الفلاني زارني الشريف حمزة الفيلالي المالكي وهو من أعيان المدينة المنورة وأحد القيمين على أوقاف المغاربة فيها.. وقد أمليت عليه فائية النعل الشريف التي اشتهر أمرها في كل الأصقاع، ومعه جرى الحديث حول حق الشناقطة وهم قلة في بلاد الحجاز في أوقاف المغاربة التي يستفيد منها فضلاً عن أهل المغرب الأقصى مجاوري المغرب الأوسط وبلاد تونس.. قال لي الشريف حمزة أن بعض المجاورين من أهل باجة اعترض على استفادة الشناقطة من الوقف بحكم كونهم أقرب لبلاد السودان، في حين أنهم محرومون من الوقف التكروري بحجة كونهم مغاربة.. وقد أكد الخبر صديقي الفلاني..

في الأيام اللاحقة زارني في بيت الفلاني ثلاثة من الشناقطة أحدهم من تنبكتو وقد طلبوا مني فتوى محررة بحقهم في الوقف المغربي، واستظهروا بشهادات عدد من أعلام المغرب من بينهم محمد ناصر الدرعي والقاضي محمد الشريف المساكني من علماء الزيتونة دفين البقيع والفقيه أبو سالم الإدريسي من علماء

تلمسان... وقد ذهبوا إلى أن بلاد شنقيط هي أقصى المغرب وبوابته لأرض السودان، شأنها شأن توات ودرعة وسجلماسة وفكيك، وصلتها بحواضر المغرب مثل القيروان وفاس ومكناس وتلمسان غير خفية، فضلاً عن ما درج عليه أمراؤها وعلماؤها من بيعة السلاطين وملوك الغرب الإسلامي والاحتماء بهم، ومنهم ملوك المرابطين الذين فتحوا كامل بلاد المغرب والأندلس، وكان لهم عظيم الصيت وجليل العمل في نشر مسلك السنة والجماعة وحمل أهل المغرب على اعتقاد واحد ومذهب مشترك هو المذهب المالكي الذي عليه الفتوى والقضاء...

قال لي الشناقطة الثلاثة المجاورون أنهم بلغوا دعواهم لنائب شريف مكة وهو القائم بأمر الحكم في المدينة المنورة، وخاطبوا شيخ الحرم النبوي، ولا زال الأمر في طور التنازع والتداول..

وعدت الجماعة بطرق المسألة مع علماء الحرم في الرواق الذي شرفت بالتدريس فيه خلال إقامتي التي امتدت شهوراً ستة، وكان درسي في السير والمغازي تيمناً بالبلدة الشريفة، فوضعت نظماً وافياً اختصرت فيه كتب السير والغزوات لقي القبول الواسع..

أخذني الشريف حمزة الفيلالي بعد صلاة الجمعة إلى شيخ الحرم أيوب آغا الذي أقامه سلطان الأستانة في هذا المقام الرفيع وخصص له قصراً منيفاً وجراية لا تقل عن جراية الأمير.. طلب لنا إمام الحرم غذاء من اللحم والأرز مع التمر والفواكه، وتطرق

الحديث إلى أصناف شتى من مسائل العلم، وقد ألفيته راجح العقل فصيح اللسان وكأنه تربى بين أعراب البادية، ولديه خزانة عامرة بتفاسير القرآن وكتب الفقه والتصوف...

عرجت في حديثي مع شيخ الحرم على أمر الوقف المغربي بحضور الشريف الفيلالي الذي عرض شهادته لصالح الشناقطة، وهم قوم يتمتعون على قلتهم بحظوة خاصة في بلاد الحجاز، وينظر لهم هناك على أنهم أهل علم وصلاح وزهد.. وقد وعد الإمام بالسعي لإحقاق الحق وإنصاف المجاورين الشناقطة..

وبعد تلك الواقعة بأيام لا أذكر عددها كنت في الرواق أشرح درس السيرة والمغازي وأتعطر بذكر الشمائل النبوية الشريفة على بعد خطوات يسيرة من القبة الخضراء، إذ قدم علي أحد المجاورين الشناقطة ومعه أحد القادمين للحج هذه السنة من أروان وهي مدينة علم وتجارة قريبة من تنبكتو ويدعى الرجل أحمد بابا أغ أيدة وقد عرض نازلة الاستفادة من الأوقاف التكرورية، وسأل هل تلك البلاد التي حكمها رماة السعديين ووصل إليها السلطان مولى إسماعيل داخلة في المغرب الأقصى أم هي من بلاد السودان..

وقد أجبت الرواني أن أمر تلك البلاد هو أمر كل أهل شنقيط أعني القطر لا المدينة، فهم بكليتهم من المغرب الأقصى لا تنفصل حواضرهم وأنسابهم عن الأقاليم الممتدة جنوب مراكش، من واد درعة وسوس وسجلماسة وتوات، وهم من وجه آخر على

أوثق صلة ببلاد السودان فخر الإسلام وموطن كبار ملوك وسلاطين الدين من ملوك مالي والصونغاي والفلانيين... ولم نكن نحن الشناقطة نقيم تفريقاً بين العرب والصنهاجيين والسودانيين، فهم ذرية بعضها من بعض، ولا عبرة بخصوصية النسب والحال أن الأصول متداخلة وملتبسة وكما قال ابن خلدون في مقدمته «النسب وهمي كله»... ألا ترى أن أئمة فوتا والصونغاي ينتسبون إلى أصول شريفية وعربية شأنهم شأن الكثير من الصنهاجيين الذين لا يزالون يتكلمون في بيوتهم ومع أهلهم باللسان الصنهاجي، وقد أدركت تجار وادان وتيشيت يتكلمون بلغة آزير السودانية دون حرج ورأيت التجار السودانيين في حواضر المغرب الأقصى ومدن القوافل يدونون رسائلهم ومصارفهم بحروف عربية... والحال أن هذا التمييز بين الشناقطة والسودانيين ضرب من التكلف وفساد الرأي، ولم نسمع به قبل نازلة الوقف الحجازي... ولقد خاب سعي الفرنسيس المقيمين في أندر في شق هذه الأسرة الواحدة بحديثهم عن اختلاف النسبة والأصل باختلاف اللون واللسان وما كان اللون واللسان حاجزين ولا أساس تفريق تمييز في بلادنا...

وبعد الرجوع لإمام الحرم ولقاء نائب الأمير وأعيان المدينة المنورة حررت حكماً مؤصلاً بالدليل والحجة بحق الشناقطة في أوقاف المغرب الذين هم من أهله وإن كان حقهم في الأوقاف السودانية محفوظ لا غبار عليه ولا نزاع فيه، فهم منتسبون

للإقليمين وميزتهم التي لها يفتخرون هي كونهم رسل اتصال ودعاة تقريب ووصل، فلا يستغني عنهم أحد، ولو فرطوا في هذا التكليف فقدوا ميزتهم وخصوصيتهم... بيد أني تركت الإشكال عند سفري قائماً والجدل فيه مفتوح، لا لغموض المسألة وتشعب خيوطها، بل إن السبب هو ما لحق ببعض الأنفس من تعصب وغلو وأكل للتراث وحب جم للمال... وقديماً قيل ما ضاع حق وراءه مطالب.

أكملت إقامتي في المدينة المنورة وكانت شهوراً سبعة مضت كالليلة اليتيمة، وشرعت في رحلة العودة إلى حيث تحملني المقادير.. فقد انقطعت عني أخبار الفتنة السوسية منذ ما يزيد على السنة، ولست أعلم ما فعل الله بالبلاد وأهلها.. أما أحوال أهل شنقيط فغيب محض لا سبيل للوصول إليه...

صحبت في طريق العودة حجاج إيالة تونس وهم كثر شديدو الانضباط والنظام والحزم، فعرجنا بعد القاهرة وطرابلس على واحات الجريدة في توزر وهي مدينة عذبة المياه جيدة التمر، ثم مررنا بقابس، ووصلنا إلى القيروان وهي من مدن الإسلام الكبرى، وكان إمامنا مالك يضعها مع المدينة المنورة والكوفة في صدارة أمصار العلوم الشرعية..

صلينا في الجامع الذي بناه الفاتح التابعي عقبة بن نافع وجلسنا إلى علمائه، فأخبرونا أن المدينة مسها في الأعوام الماضية خراب كبير إلى حد أنه لم يبق فيها إلا الجامع العتيق

وأضرحة الأولياء، وكان ذلك من أثر الحرب الهوجاء بين علي باي وأخيه محمد، وقد بدأت المدينة تتعافى بعد تولية الباي الحسين بن علي الذي أعاد بناء الجامع وأمر بفتح المدارس والزوايا ونشر الأمن والسلم، فرجعت الحياة كسابق عهدها أو قريباً من ذلك... وقد رأيت الأسواق عامرة والتجارة نشطة، ومن الصناعة التي جلبت اهتمامي صناعة الصوف والنسيج، وللبرانيس القيروانية خصوصية ليست لغيرها من الإتقان وحسن الخياطة...

مررت بوالي الباي في القيروان في مقره بدريبة العواني في حومة الأشراف، وهو أمير من أبناء عمومة ملك تونس الذي يسمونه بالباي، وله مشاركة في العلم وبعض الذوق في الأدب... أكرمني الوالي ودفع لي مبلغاً من الريال، ومدني بكتاب إلى السلطان الباي الحسين بن علي في تونس يوصي بي خيراً..

خرجت من باب الجلادين مع تجار من أهل القيروان فمررنا بعدة مدن من بلاد تونس من بينها صفاقس وسوسة والمنستير، ودخلنا تونس قبل صلاة المغرب من باب البحر.. حملت أمتعتي إلى وكالة قريبة من سوق العطارين، وكانت في غاية النظافة والاتساع، تعج بالغرباء من تجار طرابلس والقسطنطينية وجنوة وأمستردام...

وفي الصباح رافقت تاجر القماش القيرواني سعيد الدليمي الذي قال لي أن أصوله من صحراء المغرب الأقصى في رحلة استقصاء لأسواق المدينة التي ألفيتها شديدة التنظيم، ولكل أهل

حرفة أو تجارة دربهم المخصوص، كالعطارين والقماشين والخياطين والدباغين.. وتحيط الأسواق بالجامع الأعظم أي جامع الزيتونة الذي بني في القرن الثاني الهجري وهو جامع شامخ بمنارته الطويلة وأعمدته الرخامية الكثيرة ومحرابه المزخرف، وخزانته من المياه ومكتبته الزاخرة بشتى أنواع الكتب.. وإذا ذكر المذهب المالكي الذي عليه الفتوى في كل بلاد المغرب ذكرت الزيتونة وعلماؤها من أسد بن الفرات وسحنون إلى الإمام ابن عرفة... ولقد تعرض الجامع الأعظم قبل أكثر من قرن إلى اعتداء جنود الإسبان الذين دخلوا إلى الجامع في الوقعة المعروفة بوقعة الجمعة فنهبوا المكتبة، وحملوا بعض ذخائرها إلى بلادهم وإلى مكتبة قسيس الكنيسة الأكبر في رومة.

صليت الجمعة في جامع الزيتونة مع خلق كثير، وتعرفت على شيخ الجامع علي البكري وهو نجل تاج العارفين البكري العالم المعروف الذي كان شيخاً شهيراً للزيتونة... وللشيخ البكري حظوة كبيرة عند الباي، ولقد طلبت منه أن يعينني على لقائه فوعد خيراً، ثم تعدد اللقاء بالبكري في بيته الملاصق للجامع، وأخذ مني بعض الأنظام التي وضعتها لطلبة العلم في الفقه والأصول والبلاغة...

ثم كان اللقاء بالباي الملك الحسين بن علي وهو شديد البياض، من أصل تركي وأم عربية ولذلك يعتبر من الكراغلة حسب التسمية الدارجة... استقبلني الباي في رفقة محروسة من

الجند في قصره العامر بضاحية باردو التي تبعد فرسخاً عن المدينة فسلكنا طريق الحصن الصغير بالملاسين وسبخة منوبة.. وقد علمت أنه يفضل هذا القصر على قصر الحكم في القصبة لدواعي الأمن، بل إنه كثيراً ما فضل الإقامة في الخيام بين جنوده، خوفاً من غدر الخصوم الذي هو عادة ألفتها تونس منذ دخول العثمانيين إلى البلاد وحروبهم مع الممالك الأوروباوية وصراعهم المستمر مع قبائل الجبل..

أبلغت الباي كتاب واليه على القيروان، فأقبل علي بوجه سمح باش، وسألني عن أحوال بلاد شنقيط والمغرب الأقصى عموماً، وقد وجدته جيد الاطلاع على أوضاع تلك الأنحاء، حريصاً على أوثق العلاقة بالإمامة الإسماعيلية وبلاد الصحراء والسودان.. وقد ذكر لي أنه بعث إلى مولاي إسماعيل رسولاً يستحثه على رص الصف وجمع الكلمة للوقوف ضد مخاطر غزو ممالك الفرنجة وخصوصاً الإسبان الذين وصلوا لتونس ولوهران قبل أن يجلوا منها، كما أن مملكته تعاني بانتظام من تهديد أهل جنوة وصقلية.. وقد اعتبر الباي أن تونس بحكم قربها من الممالك الأوروباوية أدرى بهذه المخاطر، وهي على أوثق ارتباط بالأمصار الإيطالية وكبار حاشية الباي وقواد الجند يتكلمون بلغات الأوروباويين وبصفة خاصة لغة الطليان... كما أن علاقتها بملوك الفانداص أي الهولنديين طيبة، وقد أخبرني الباي أنهم أقرب الأوروباويين للمسلمين، وقد ظهر فيهم مذهب يسلك طريق

التجديد والاجتهاد في دين النصرانية ويسعى إلى تخليصه من الخرافة وتحكم القساوسة في رقاب الناس، ويرى ما نقوله نحن من صلة الله المباشرة بعباده واتساع سبل التأويل للنص المنزل على عامة البشر... وقد سمعت أخبار هذا المذهب من قبل في مكناسة وشرحه لي أحد الفارين من مسلمي الأندلس الذي بعثه السلطان في سفارة إلى أمستردام...

مدحت الباي بقصيدة طويلة من أبياتها:

وأسير الغل لا يرجى له

مخلص دون حسين بن علي

ملك البرين والبحرين ليث

الليوث التركماني الكرغلي

الحكيم الحاكم العدل الرضى

والأمير الآمر الخير الولي

عم إفريقية إحسانه

وارتوت تونس منه بالملي

أعجب الباي بالقصيدة أيما إعجاب، وأمر بتدوينها، وطلب نقلي إلى إقامة مريحة في أعلى جبل حمام الأنف وهو مصيف لعلية القوم ارتأى أنه الأنسب لي في شهور الصيف الحارة في تونس...

مكثت شهوراً ثلاثة في تونس، كانت كلها إمتاع ومؤانسة، ولقد أكبرت هذا الملك الشجاع الذي استطاع إجلاء حكام الأتراك فلم يبق لهم إلا باشا ليس له من الآخر شيء يحمل فرمان الشرف من السلطان العثماني للباي... كما أعجبني أن الباي لا يحكم بمفرده بل قد وضع أسساً ثابتة وقواعد دقيقة لسير الملك، فله وزراء يختص أحدهم ببيت المال وآخر بالبحرية وآخر بشؤون الحرب... كما أن الباي يرأس مجلساً للشرع يضم كبير العلماء والقضاة، وله ديوان يستشيره من كبار القواد والشيوخ ومنهم مفتٍ على المذهب الحنفي وآخر على المذهب المالكي الذي جعله مذهب الدولة... وقد وضع ترتيباً محكماً لأخذ المكوس والإتاوات من الناس دون ظلم أو عنت، ونشر العدل والأمان في كل البلاد رغم صعوبة الجوار وتربص الأعداء...

خرجت من تونس بعد شهور من الإقامة السعيدة وقد وجدتها بلاداً تؤنس القلب وتشحذ العقل، وعلماؤها من أكثر علماء الإسلام سعة باع، وقد رحلت عنها ببعض الحسرة والأسف...

مررت ببلاد الكاف التي دمرتها حروب ملوك إفريقية ودايات الجزائر، ودخلت قسنطينة، وبعد أيام متصلة من السفر دخلت بلاد توات التي هي أول حواضر المغرب الأقصى ومدخل أرض الصحراء والسودان..

كنت أسمع كثيراً بهذه البلاد التي يقول أهل شنقيط أن أصلهم منها، والحال أنها تشكل مع سجلماسة ودرعة إقليماً

واحداً شديد الالتصاق ببلاد شنقيط بحواضرها ومدنها المعروفة... وتوات هي مجموع من القصور الكثيرة الممتدة.. وقد دلفت إليها من واحة أولف وهي أكبر واحات توات، وأقمت في كبير أحيائها المسمى بالألف الكبير أو ألف الشرفاء في بيت التاجر الكريم والعالم الفاضل أبي الأنوار عبد الكريم التنلاني، وهو شاب لطيف المعشر، دائم التبسم، تعرفت عليه عن طريق أحد تجار توات من رفقتي، وقد أكرمني غاية الإكرام...

توات كما وجدتها نكاد تكون نسخة من تامكروت وسجلماسة، مع أن أهلها يتكلمون لغة قريبة من الأزير المعروف في حواضر بلاد شنقيط، كما أن الكثير من سكانها من عرب المعقل الذين يتحدثون بلسان قريب من لسان بني حسان في بلاد شنقيط... وقد التقيت خلال إقامتي بتوات رجلاً من سادة العرب كما يسمونهم هناك اسمه وداك بن غويزي يكاد يكون نسخة من عرب المغافرة، وإن كانت القبائل الصنهاجية والزناتية واسعة الانتشار في قصور توات أيضاً حسب ما أدركت من تنقلي ما بينها.. كما أن في المدينة فئة أخرى يسمونها بالحراطين والغالب عليهم السواد، والتسمية كما أخبرني القاضي ابن الجوزي ترجع إما للسان العربي فتكون في الأصل لفظ «الحراثين» من الحراثة أو من اللغة الصنهاجية فتعني المهجنين أي الخليط بين الأقوام باعتبار أن هذه الفئة هي في الغالب مزيج بين أصول صنهاجية وأصول سودانية...

وعلى العموم لا يكاد يختلف حال هذه البلاد عن بلادنا من

حيث أصول الناس وطبقاتهم... وقد قاد ابن الجوزي حملة كبرى لمحاربة الفوارق بين هذا الملأ، مبيناً أنها تخالف الشرع الذي لا تفضيل فيه إلا بالتقوى، وبين أن ما درج عليه الناس من استرقاق للمسلمين واستجلاب للعبيد من بلاد السودان عنوة أو شراء إنما هو من محض الكبائر والمنكرات.. وهو في ذلك يتبع العلامة أحمد بابا التنبكتي في كتابه (**معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود**) الذي هو شيخه بوساطة من أعلام مراكش الذين صحبوه أيام إقامته في الأسر والمنفى...

أعجبني في توات رواج تجارتها من أنواع التمور والحبوب والأقمشة والأغطية والأفرشة وأصناف الزينة والمسك والبخور، والذهب والفضة، فهي ملتقى القوافل، وإليها يرد تجار السودان وبلاد الجريد والشرق، بل لقيت فيها أورباويين من بلاد الجرمان والإنغليز لا أحد يتعرض لهم بمكروه أو سوء، فهم داخلون في عقد الأمان الذي لا يجوز خفره ما داموا ليسوا أهل حرب ولا عدوان، وذلك ما شرحته لأهل توات في فتوى طويلة..

كما أعجبني في توات نظام استخراج المياه وتقسيمها، وهو نظام فريد يسمونه الفقاقير لم أجده خارج تلك البلاد، فلا تجد بينهم تنازع ولا خلاف على الرغم من ضعف سطوة الحاكم، إذ لقيت خليفة السلطان في تلك البلاد مكتفياً بالاعتماد على أهل الحل والعقد الذين يديرون شأنهم بالمشورة والاتفاق كما هو شأن جماعتنا في شنقيط..

ولقد تطرق الحديث مع مضيفي الشيخ التنلاني إلى أمر الحكم والإمامة في البلاد التي تتولى فيها الجماعة شأن تصريف الأمر العام، فأجبته أن في المسألة وجهان: وجه يخص الإمامة الشرعية وأساسه عقد البيعة التي هي من متعلقات الإذعان لحكم الدولة من حيث هي الرباط الأعلى المشترك بين أفراد الأمة، ووجه يخص حال الجماعة التي يتوقف عليها تدبير شؤون الناس في ضروراتهم وحاجياتهم وهو أمر أدرى به من تنتدبه الجماعة للتكليف المباشر...

فدون البيعة الشرعية لا يستقيم الحكم ولا تقوم الإمامة العظمى، ودون الجماعة والمشورة لا حقيقة للحكم ولا جدوى يرجع للناس منه... فالمشكل الكبير المطروح على البلاد السائبة التي تخلو من إمام قائم مبايع لصعوبة انقيادها أو الاستيلاء عليها هو أن أهلها يكونون ميالين للاستقلال بأنفسهم ظانين أن ذلك أحفظ لكرامتهم وحقوقهم فينقلب علَيهم ظلمة صغار يسومونهم العنت والإكراه، والحال أن الإمام الشرعي هو الأقدر على حماية أموالهم وأعراضهم وشؤونهم كافة وهو في مقام أعلى من الخلاف والتنازع، فيتكافأ الناس عنده..

كان رأي التنلاني أن الفقيه قادر على سد الخلة والقيام بأمر الحاكم، لما تأتى له من إقبال الناس عليه ورضوخهم لحكمه، لكني نبهته أن في هذا الرأي لبس لا بد من رفعه، وهو أن الأمير والفقيه يختلفان من حيث المقام والمكانة ولا يمكن لأي منهما

أن ينتزع مكان الآخر.. فبالأمير تحقن الفتن ويحفظ النظام وبه تناط القوة التي من دونها يتقاتل الناس ويعتدي بعضهم على الآخر، فسيفه مجرد من الانحياز والميل، أما الفقيه فهو حافظ أعراف الجماعة القيم على مصالحها وبه يناط رفع القيود وفتح مسالك الحلول لدوام ضرورات الناس وتحقيق حاجياتهم، عن طريق أحكام الشرع وضوابطه ومقاصده... فلا غنى عنه ولا مناص من الرجوع إليه...

والخطر كله هو عندما ينازع الفقيه الأمر ويواجهه فتكون الفتنة العمياء، أو يتجاوز الحد المألوف لمكانته فيهدف إلى أن يصبح سلطاناً أو أميراً يسوس الناس بالقوة والحزم، فتسقط هيبته من قلوب الناس ولو كان عالماً صالحاً كما جربنا في بلاد شنقيط وفي زوايا السوس...

انتهت إقامتي في بلاد توات التي دامت شهرين كاملين، وصحبت في رجوعي إلى مدينة شنقيط قافلة تجار ولاتة، وكانت تحت إمرة أخينا الفاضل محمد عبد الله الرقادي وهو من أعيان أهل تنبكتو وتجارها البارزين، ومن أهل العلم والأدب، لا يفتأ يتغنى من شعر الشريف الرضي وجرير.. أو يردد الأذكار الصوفية بصوت عذب جميل..

وبعد شهر من السفر، عدت بعد سنتين من السفر الطويل إلى شنقيط...

الفصل السادس

عدت إلى شنقيط بعد طول غياب، فوجدت المدينة الوديعة على حالها.. الجامع العتيق والمقبرة وواحة النخيل وبيوت الحجر المتراصة، وقطعان الإبل والماعز القليلة، والسوق الصغيرة في أطراف المدينة من حيث تنطلق القوافل وإليها تعود... حتى الوجوه التي تركتها لم تتغير كثيراً، رحل بعض منها إلى دار البقاء لكنهم لم يبتعدوا كثيراً بل إنهم على لغة أهل بلدتنا اختاروا اللحاق بأسلافهم في المقبرة التي سميتها ذاكرة المدينة الميتة..

بعد أن زارني جل أعيان ووجوه المدينة يوم رجوعي وأتحفتهم على عادة حجاج شنقيط ولو طالت رحلة العودة بتمرات قليلة من تمر المدينة وقطرات محدودة من ماء زمزم، أما العلماء والفقهاء فكان طلبهم إعارة الكتب الجديدة لاستنساخها أو نقل بعض الفوائد العلمية منها...

ولا بد من أن أبين لك أيها العزيز خصوصية علاقة الشناقطة بالكتب، أعني عامة أهل هذه الصحراء... إنهم لا يقتنونها أو يقرؤونها على عادة أهل الأمصار الذين تكثر فيهم الكتب وتتعدد

فيهم الخزانات كما رأيت في المدينة المنورة والقاهرة والقيروان ومكناس ورأيت أيضاً في بلاد السوس، بل إنهم يرون كل كتاب يصل أيديهم علماً مكتسباً، وإضافة جديدة للعلم والمعرفة، وحجة تعضد حكماً خلافياً وما أكثر خلافات العلماء والقضاة ولو اتفقوا في المذهب والمرجع، وهي على العموم خلافات لا تتعدى في الغالب عقد بيع نخلة أو تنازعاً في بئر أو واد..

كل كتاب من كتب الشناقطة له تاريخه أصلاً وابتداء ومآلاً، يعرف من جلبه وتاريخ اقتنائه، وتنقلات إعارته داخل المدينة وما بينها وبقية حواضر العلم... وعلى الرغم من ندرة الكتب وأهميتها الفائقة لا يتردد أي من العلماء على إعارة خاصة كتبه لغيره ولو خاف عليها التلف والضياع، لأن الجميع يدرك في قرارة نفسه أن الكتب ثروة مشتركة يتقاسمها كل أهل العلم، ولو احتفظ أحد منهم بكتبه الخاصة لانقطعت سبل انتقال العلم وتدريسه وضاع القضاء والفتوى... وهم مع ذلك يبذلون النفيس في شراء الكتب، فهذا أحد فقهاء المدينة يشتري نسخة فاسية من شفاء القاضي عياض بقطيع كامل من الإبل، وذلك آخر يشتري ذخيرة ابن بسام من تاجر تواتي بقطعة كبيرة من ذهب باغنة... والقصص في هذا الباب كثيرة لا تحصى..

ومن حسن الطالع أني حملت إلى شنقيط ما يزيد على ستمئة كتاب أغلبه نادر لا يوجد في البلاد، أكملت فيه الخزانة التي أتى بها جدي من الحج وتركها عند أبي بعد رحلته الجنوبية.. هذه

الكتب التي مدني بغالبها السلطان مولاي إسماعيل وابنه الأمير محمد العالم بالإضافة إلى ما حملت مؤخراً من مصر وإفريقية تحولت كما هي العادة إلى كتب يتقاسمها كل ساكنة المدينة ومن حولها، ليس لي فيها إلا نسبة الملكية وشرف الجلب والاقتناء..

بعد أيام ثلاثة من استقبال الوافدين وزيارة كبار السن والمرضى من الأهل والأقارب وكل أهل شنقيط أقارب متقاربون نسباً وجواراً، استغرقني حال سكان البلدة وكأني لم أغادرها قط يوماً من الأيام، وهو الشعور الذي يصاحبني كل ما عدت إليها من أسفاري الطويلة الكثيرة...

كنت كعادة أهل شنقيط أنتقل إلى الجامع العتيق في الهزيع الأخير من الليل فأبقى فيه إلى ظهور الشمس، قبل أن أرجع إليه ضحى للتدريس والقضاء، ولا أبرحه إلا لغرض عاجل، حتى تقام صلاة العشاء فأرجع إلى البيت حيث تمتد السهرة مع الأصدقاء الخلص..

وقد أصبحت لي مثل جدي وأبي حلقة خاصة من الأصدقاء المقربين تجمعنا المسامرات الليلية الطويلة على عادة أعيان شنقيط.. ومن أهم أفراد حلقتي الخاصة مصطفى بن الطالب عثمان الذي يطلق عليه عامة أهل شنقيط «الطالب مصطف» وهو غاية في العلم والصلاح وقد زار الزاوية الناصرية في درعة وأعجب به أهلها، وصديقه محمد بن الحاج محمد أحمد الذي نسميه «أبو الكساء» لأن لديه كساء لا يفارقه يتخذه رداء اتباعاً

للسنة الشريفة، وهو مثل صاحبه واسع العلم وطيب الخلق، أما والده فقد اشتهر بحجته المعروفة التي رافقه فيها أربعون من سكان شنقيط، وهو إلى ذلك كله ابن أختي وإن كنا متقاربين في السن..

كان رأي الطالب مصطف وصديقه محمد أن الحال ضاق في مدينة شنقيط، والكثير من أهلها قد رحلوا عنها، إما هروباً من الفتنة أو طلباً للمعاش وقد ضاقت سبله إثر تعطل مسالك التجارة وخراب طرق القوافل، ولذا اعتبرا أن الواجب يقتضي اليوم بناء رباط محصن للعلم والدين في بلاد بعيدة عن الفتنة وحروب القادة والأمراء، بحيث يتسنى لزوايا العلم استرجاع بعض المكانة فيركن إليهم الخائف والجائع ويستقلوا بأنفسهم في أمرهم وتنفتح لهم سبل عيش جديدة في أرض خصبة تصلح للرعي والزراعة...

كنت أخالف صاحبي وأبين لهما أن تجربتي في السفر ومخالطة أهل الشوكة والسلطة أوصلتني إلى أن زوايا العلم لا يمكن أن تكون خياراً بديلاً من إمامة السيف والقوة، وإن هي آثرت حمل السيف وقررت مقارعة المتربصين والمعتدين بالسيف دخلت في منطق الإمارة والحكم، وهو ما حصل للزاوية الدلائية، وغير بعيد عنا ما حصل لناصر الدين وجمعه من الشمشويين والزوايا..

كنت أجل الرجلين وأعرف فضلهما وأتفهم موقفهما، لكني أخالفهما الرأي، وأخشى كل الخشية أن يرحلا عن المدينة فتفقد بهاءها وكثيراً من بركتها وبريقها...

إلا أن بعض الأحداث الصغيرة التي حدثت في المدينة حملت صديقي على الإسراع في تنفيذ ما صمما عليه من قبل... جاءني الرجلان ضحى وقد أعدا عدة الرحيل من جمال تحمل الأسر والأولاد والأفرشة والزاد، فودعاني بصمت يحمل معنى كثيفاً.. وقد التحق بهما بعد أيام الحاج المين بن المختار الذي يلقبونه بالتواتي لميلاده ونشأته في تلك البلاد، وهو من رؤوس أهل شنقيط وأعلامها الكبار وإمام ركب الحجيج فيها، وله من المآثر والفضائل ما لا ينكره أحد...

كان السبب المباشر لرحلة أعيان شنقيط هو بروز حالات من الفتنة والشجار في المدينة التي كانت في السنوات الأخيرة قد استعادت بعض السكينة إثر الفتنة التي عرفتها وأدت إلى هجرة الكثير من سكانها شرقاً وجنوباً..

قال لي محمد أبو الكساء أن والده الذي رحل قبل سنوات شرقاً قال له: «إذا رأيت الماء يخرج من الرحى فخذ عصا السير وارحل».. وقد رأى الماء يخرج من الرحى أمام داره، فأخبر صديقه الطالب مصطف بالأمر واتفقا على الرحيل... وشاع في رجال الحي أن الشاب الشاطر قد أوعز إلى الطالب مصطف عندما كان طفلاً حدثاً أن يترك مدينته عندما يرى إمارة الرحى نفسها..

كان رحيل الطالب مصطف ورفيقيه حدث من الأحداث الكبرى القليلة في المدينة، وكان خطباً جللاً بالنسبة لي... فقدت

المدينة روحها، وصرت أعيش في عزلة موحشة وضيق لا مخرج منه... تغير طعم البلح الصباحي وماء العين وعصيد الشعير... أصبح الجامع صامتاً، انقطعت فيه جلسات العلم والإفتاء، كما توقفت المسامرات الليلية في البيت وفي البطحاء ليالي الصيف المقمرة...

تتبعت أخبار الركب الراحل من شنقيط، وبعد شهور من الانتظار بلغني أنهم أسسوا رباطاً سموه قصر السلامة في بلاد الرقيبة أرادوه على مثال مدينة شنقيط من حيث البناء والعمران ونمط التعليم والتدريس... وقد التحق بهم جمع وافر من أهل تلك البلاد، طلباً للعلم أو فراراً من الظلم والحيف،.. وكتب لي الطالب مصطف كتاباً حثني فيه على الالتحاق بهم، وأكد لي أن هذا الرباط سيكون الحصن الذي يركن إليه عامة أهل البلاد الصحراوية على غرار رباط عبد الله بن ياسين والأمير ابن عمر..

كان قد مضى على رجوعي لشنقيط من رحلة الحج سنة ونصف، ولم يصلني شيء في أمر الفتنة السوسية التي تركتها مشتعلة، كما انقطعت عني أخبار الأمير أعلي شنظورة التي تركته قبل سنوات وكان أوانها عقد الاتفاق مع الفرنسيس بشأن تجارة الصمغ بحراً ونهراً، كما انتهى إلى مهادنة عرب الغرب وجيرانه من البراكنة وظهر لي أنه عزز الصلة بالأمير هيبة، واتفقا على جمع الكلمة في التجادل مع الفرنسيس وسماسرتهم السودانيين..

كنت في شديد الشوق إلى معرفة حال الإمارة وشديد الجزع

والخوف من مآل بلاد سوس التي تركتها في تلك المصيبة العظمى...

بعد رحيل أصحابي وأهل مسامرتي عزمت على الرحيل جنوباً لزيارة إخوتي الذين التحقوا بأعمامهم وأبناء عمومتهم، وكان الوقت صيفاً، وقد تخافقت البروق على الغميم واشتاقت العين إلى مرابع الأهل في شمامة، فألقيت عصا السير مجدداً، وأنخت راحلتي بعد أسبوعين من السفر في مخيم الأهل.. وكانت ليلة قدومي ممطرة مهولة الرعد والبرق...

بعد أيام من الإقامة بين الأهل جاءني القاضي المختار الموسوي ومعه وزير الأمير ميلود، وبعد السلام والسؤال عن الحال، طلبا مني مرافقتهما إلى المحصر أي مخيم الأمير وكان قريباً من شمامة على فراسخ معدودة من النهر، وقد قرر الرحيل إلى أنحاء إيكيدي بعد أن أصبحت مراعي الإبل جاهزة لاستقبال هذا المخيم والجند الذي يحرسه...

عرفت من القاضي والوزير أن الصراع اشتد مع البراكنة، فلم تصمد طويلاً الهدنة التي تمت مع الأمير هيبة الذي خلفه ابنه امحمد وهو رجل مغوار شهم واسع الطموح، يصارع على جبهات عديدة في آدرار وبلاد الرقيبة ويحاول أن يستأثر بتجارة الصمغ في النهر، وقد ربط صلات قوية مع الفرنسيس لهذا الغرض، والأصح أنهم هم الذين يريدون استغلال الخلاف القائم بينه وبين الأمير أعلي شنظورة للحصول منه على مكاسب

وتنازلات تفيدهم في صراعهم المحتد مع الإنغليز من جهة ومع البروسيين والهولنديين من جهة أخرى..

وهكذا كانت إقامة أعلي شنظورة الطويلة في شمامة هذه السنة لمراقبة الوضع وتوطيد الحلف مع السنغان وقادة الوالو والفوتا لقطع الطريق أمام مخططات الفرنسيس والاستعداد لمواجهة البراكنة.. وقد قرر أعلي شنظورة ترك حامية في شمامة تحمي حدود الإمارة بعد رحيل المخيم الأميري إلى إيكيدي..

صحبت القاضي والوزير إلى المحصر، وتعددت جلسات اللقاء مع صديقي الأمير قبل الرحيل وخلال ساعات المسير الطويلة من شمامة إلى إيكيدي.. طلب مني الأمير مرافقته إلى مرسى أكادير لمقابلة القائد الفرنسي الجديد الذي وصل قبل شهور، فانطلق ركبنا بعد أسبوع من الإقامة في إيكيدي حيث تجدد اللقاء بصديقي العزيز محمد أليدالي وكان قادماً من إحدى رحلاته في بلاد البراكنة، وقد أنشدني قصيدته المديحية غريبة السبك جميلة المعنى التي نظمها حسب أحد بحور الزجل الحساني بعد أن سمع قصيدة مدح لأحد الأمراء هناك... والقصيدة تبدأ بـ:

صــلاة ربــي مــع الــســلام

عــلــى حــبــيــبــي خــيــر الأنــام

وهي طويلة مباركة لقيت كامل القبول.

وقد تكرم بمدحي بقصيدة طويلة فأجبته مادحاً بقصيدة في الروي والقافية نفسها، وهو أجدر بكل مدح وإطراء..

وصل ركبنا أكادير بعد عشرة أيام من السفر المتواصل، فاستقبلنا القائد الفرنسي الجديد الذي يسمى دوفال في القلعة التي يحرسها رجال أشداء من الفرنسيس والسنغان، ومعهم بعض المهجنين الذين يشرفون على نظام الخدمة والاستقبال... بدا لي القائد دوفال رجلاً شرس الطباع، حاد المزاج، مشتت الفكر، ضيق الباع... ومع أن الأمير بذل جهداً كبيراً للحصول على ثقته من أجل الحفاظ على المغانم التي وعد بها سلفه، إلا أنه أظهر تهرباً واضحاً من الالتزامات المذكورة، وتعلل بأنه جديد العهد بالمهمة ولم يتسن له بعد معرفة حال القلعة والمرسى، ووعد في النهاية بالاتصال برؤسائه في أندر لتذليل الصعاب وحل ما علق من إشكال...

لم يكن الأمير مطمئناً عند مغادرتنا القلعة، وقد خلف أحد رجال ثقته وهو القائد أعمر في مخيم قريب من المرسى لمتابعة مستجدات الأمور، وأوصاه بالحزم والحذر وأخذ الحيطة، وكلفه بحماية تجار وسماسرة القلعة من رعايا الإمارة...

وما أن انقضت أيام عشرة وكنا لا نزال في مسيرنا البطيء إلى المحصر مارين ببلاد العرية حتى قدم إلينا فارس يغذ السير وطلب لقاء عاجلاً بالأمير الذي كان أخلد للنوم في خيمته، وقد أرسله القائد بأخبار مفزعة ترتعد لها الفرائص وتدمي الأعين... طلب

الأمير حضوري العاجل، وأمر الفارس الملثم بإطلاعي على الخبر المؤلم، فقال لي إن رواد القلعة من السكان المحليين فوجئوا بدعوة والي الفرنسيس على القلعة دوفال لزيارته وبعد أن أغلق الأسوار أمر رجاله بقتل كل من حضر والتمثيل بأجسادهم التي قطعها إرباً ونثرها في أنحاء القلعة، واعتبرها درساً للترارزة وأميرهم وإعلاناً واضحاً للحرب والتحرر من كل المواثيق والالتزامات السابقة..

أمر أعلي شنظورة بالنفير العام وبعث إلى رجال محلته بالانطلاق إلى مرسى أكادير مباشرة، وباشرنا السير السريع إلى القلعة التي وصلناها بعد أيام خمسة من السفر المتصل..

عندما وصلنا القلعة، كان القائد التروزي أعمر قد حاصرها من كل الجهات، ولما وصلت النجدة من المحصر أمر الأمير أعلي شنظورة بالهجوم على أبواب القلعة وانتزاعها عنوة...

تواصل الهجوم أسابيع طويلة، وقد بدأ الماء والزاد يقل في القلعة المحصنة، ولم يجد استجداء القائد الفرنسي في رفع الحصار، ورفض الأمير كل محاولة للصلح وأكد بوضوح لا لبس فيه لسفراء والي القلعة أن الثمن المطلوب لن يكون أقل من رأسه ورؤوس كل من ضلع في المذبحة الشنيعة، فهذا حكم الشرع ولا محيد عنه...

بعد شهرين من الحصار، جاءنا كتاب من صديقنا جان ريرز الوالي الهولندي في ميناء هدي الذي طرده الفرنسيون من مرسى

أكادير.. وقد أخبرنا ريرز أن الفرنسيس طلبوا منه التدخل للصلح وعرضوا أموالاً طائلة للتعويض، وكل ما يريدونه هو أمان أنفسهم على أن يغادروا القلعة سالمين...

وحسب ما أخبرنا رسول الوالي الهولندي فإن دوفال وبعض قادته هربوا سراً في زورق صغير وقد اتجهوا إلى أندر متسللين...

كان أول قرار اتخذه الأمير بعد السماع لرسالة ريرز الهولندي هو الطلب من قائده أعمر اللحاق بالزورق الهارب والقبض بأي ثمن على المعتدي ورجاله.. أما شروط الصلح للإفراج عن بقية الأسرى فلن ينظر فيها قبل استسلام حامية القلعة...

بعد أيام من ملاحقة الوالي الفرنسي الفار، لحق به القائد أعمر وكان على مقربة من رأس نواذيبو فقطع رأسه ورؤوس أعوانه الستة عشر وكلهم من الفرنسيس.. وفي طريق رجوعه مر بقارب فرنسي متعطل فذبح بسيفه كل من فيه وكانوا ثمانية...

ولا شك في أن هذه الأخبار قد وصلت لخلفية الوالي الفرنسي على القلعة الذي يسمى لاريش فأعلن الاستسلام التام، فتم أسره مع كل من معه من الفرنسيس والسنغان والمهجنين، وتم تسليم القلعة للهولنديين..

جلسنا مطولاً مع جان ريرز وهو رجل عاقل حصيف عرفناه من أيام الأمير عمر أكجيل رحمه الله، يتحدث اللسان العربي بطلاقة ويعرف بعض تاريخ وأنساب أهل الصحراء..

وكان ريرز هو الذي أوصل قبل سنوات رسالة إلى رؤساء الشركة الهولندية عن طريق قبطان السفينة المتجهة إلى أمستردام واسمه لورانس بورت، وهذه الرسالة حررت كما يلي:

«بسم الله والحمد لله وحده، ولا يدوم إلا وجهه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً. تبليغ السلام من سلطان المسلمين اعْلِ شَنْظُورَ إلى سلاطين هلندى، أهلِ عهدنا ومحبتنا وموالين أمره، وكل ما بعثت إلينا في كتاب فهو مقبول عندنا في خبر بلادنا وبلادكم، ولا نقبض العهد مع النصارى إلا بعهدكم سواء افرانص وغيرهم. والحمد لله على سلامتنا وسلامتكم. وكماندور الرئيس فهو وكيل بيننا وبينكم، كل ما بعثت به فنحن نقضي حاجتهما إن شاء الله، وبناء أكادير في المرسى فهو مقبول عندنا بطيب نفوسنا إن أمكن تقدر على بنائها في حرب بينكم وبين النصارى، وكل ما بعثت إليه لنا فهو موجود، والعهد بيننا لا يقطع أبداً. والسلام».

كان أعلي شنظورة يريد من هذه الرسالة مصالحة الهولنديين الذين طردهم أخوه عمر أكجيل، وقد ظهر له أنهم أقرب الأورباويين إلى أهل هذه البلاد؛ ولذا بعث لهم كما بعث لحليفهم الملك البروسي فردريك سفراء لحثهم على التعامل معه والائتلاف للوقوف ضد مخططات الفرنسيس الذين لا تخفى أطماعهم في أرض الصحراء..

وعندما التقينا مجدداً ريرز كان يبادلنا الرأي حول خطر

الفرنسيس، وأظهر استعداده لمساعدة الترارزة على حماية ملكهم في أكادير دوم وملحقاتها، وطلب إيفاد رسول من الأمير إلى أمستردام لمقابلة أمرائها، فبعث الأمير أعلي شنظورة سفيره أحمد منصور الذي أقام في السابق في أمستردام فترة من الزمان وصار يعرف أهلها ويحسن الكلام بلغتهم... وقد أمده بالكتاب التالي:

«الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده. تبليغ السلام من عند الشيخ اعْلِ الشَّنْظُورَ بن هَدٍّ بن أحمد ابن دامان إلى كباران فليسس وأهل الحل والعقد والكلام والرأي، وبعدُ فموجبُه إليكم إعلامُكم بأن أرض المسلمين كلَّها لي وأمرها بيدي بطاندريك وغيره، لنا الأرض ولا نعطيها لأحد إلا من هو وفيٌّ بعهده، ولأن البحر لا طاقةَ لي عليه، ولئن كنتم على عهدنا معكم وصُلحنا معكم فافعلوا غير فعلكم الذي تفعلون معنا في عقر أرضنا، لأنه فعل العدو لكم، وأتوا بجيوش كثيرة تغلبوا افرانص، لأنهم حقروكم ولاعبوا بكم، وهم إن كانوا في بر المسلمين نكفيكم منهم، وأما البحر فلا طاقة لنا به إلا بكم، وإنا لا نصلحهم حتى نيأس من قدومكم. والأرض أرضنا فما لهم ولا لأحد إلا العهد، ولن ننثني بما قلت لكم».

كان الكتاب من تحرير العلامة الأديب محمد أليدالي الذي التحق بنا في أكادير وهو صديق قديم للقائد الهولندي ريرز وقد فرح به فرحاً عظيماً... ومضت شهور طويلة دون الحصول على جواب شيوخ الهولاند، وكان الأمير متيقناً أن الفرنسيس يتربصون

به وبحلفائه الهولنديين، ويرى أن ملك بروسيا الكبير فردريك الذي كان حليفاً لأخيه عمر أكجيل قبل انقلاب الأمور هو الذي يمكنه أن ينقذه من مكايد الفرنسيس الذين وثقوا العلاقة بخصومه من البراكنة والتنكليين في فوتا.. وقد أكد له ريرز أن بإمكان الملك فريدريك الذي يسمونه «اليكتير براندبورغ» أن يمده بجيش قوي يحميه من الأعداء المحيطين به، فهو كما خبرنا القائد الهولندي ملك عادل لا عنت في عهده ولا تعصب لدين أو مذهب ولا تنكيل بالخصوم، وهو حليف للإسلام والمسلمين وفي جيشه كتيبة خاصة بالمسلمين تسمى كتيبة الفرسان المسلمين من التتار والألبانيين والبوسنيين... وقد ذكر لنا ريرز أنه يقرأ كثيراً حول الإسلام، وله صديق من فلاسفة الفرنسيس منشق عنهم اسمه فولتير يراسله بانتظام وقد كتب له يمدح بوضوح وسلاسة عقيدة التوحيد لدى المسلمين التي لا تتعدى الإيمان بالله ورسوله دون تفتيش في القلوب مع أداء عبادات سهلة، والاتسام بفضائل الأعمال التي يتفق حولها عموم البشر... وكان محمد أليدالي يناقشه بروحه الشمشوية المرحة حول هذه الأمور العقدية وما يتصل بها من شيم وسلوك، وقد أهداه كتابه الفريد حول «شيم الزوايا»..

وكنا لا نزال ننتظر رسول الأمير الذي انقضت على رحلته إلى أمستردام سنة كاملة لا ندري ما فعل الله به خلالها، إذ وصلتنا الأخبار أن الفرنسيس قد اقتربوا بسفنهم وجنودهم من

أكادير، وأرسلوا رسلهم إلى القائد الهولندي ريرز يطلبون منه الانسحاب من القلعة مع الاستعداد لتعويضه عن خسارة تخليه عن الموقع... رفض ريرز عرض الفرنسيس وحاول الوقوف ضدهم، لكنه لم يكن في حال يسمح له بقتالهم ولم تصله بعد النجدة التي طلب من امستردام، فانتهى إلى الإذعان لشروط الفرنسيس وانسحب مضطراً إلى ميناء هدي...

وصلتنا الأخبار ونحن لا نزال في مخيم الأمير بالعرية، فرجعنا مسرعين إلى القلعة التي استقبلنا فيها صديقنا القديم الوالي الفرنسي في أندر بروي الذي عاد إلى مهامه السابقة في عاصمة الفرنسيس على ضفة النهر..

كان بروي مصحوباً بمترجمه الذي يتقن الحسانية لصلته بالدومنكاور وادانيي الأصل وتجار الصمغ المعروفين، كما كان معه صديقه القسيس روزيرس الذي يعرف كلمات من العربية بلكنة شامية وقد قابلته من قبل في رحلتي إلى شمامة وأندر..

بدا لنا من الواضح أن الوالي الماكر أراد أن يضع حداً للحرب والخلاف، وقال لنا بصراحة إنه لا يعادي الترارزة بل يعترف لهم بحقوقهم، ومن المستعد أن يزيد من الرسوم المدفوعة للأمير وحاشيته من بنادق وأقمشة وعطايا أخرى، كما أنه على استعداد للوقوف معه ضد أعدائه، لكنه يشترط في المقابل حصر تجارة الصمغ بالفرنسيس وقطع الصلة بالهولنديين والبروسيين وخصوم فرنسا من الإنغليز الذين عانوا الأمرين من المعارك معهم

حول نهر غامبية وما حوله من بلاد السنغان، ولا تزال الشركة الإنغليزية في إفريقيا منافساً قوياً لعاصمة التجارة في أندر... وتواعدنا في أندر عند انطلاق موسم الصمغ العربي..

لم يكن الأمير أعلي شنظورة الذي لا يزال ينتظر سفيره إلى الهولنديين واثقاً من الوالي الفرنسي المخادع، لكنه تظاهر بالقبول والاتفاق مع بروي الذي خلف على القلعة قائداً يسمى ماريون ومعه كتيبة من اثنين وثلاثين فارساً مسلحاً من الفرنسيس وستة من السودانيين مع ما يلزم من الزاد والمؤونة في هذا الجزيرة المعزولة..

رجعنا إلى المحصر بعد رحلة مضنية إلى أكادير دوم، وعزمت على الرجوع لشنقيط، وكنت في أشد الشوق إلى الديار السوسية والزاوية الناصرية في درعة، وفي أشد الخوف والجزع من مصير تلك الحرب التي تركتها مستعرة في ذروتها... ولم يكن بإمكاني الحصول على الأخبار إلا مما تلتقطه قوافل واد نون وتوات التي تمر بشنقيط ووادان..

كنت أعد العدة للرحيل عندما وصلني كتاب مع أحد تجار وادان في طريقه إلى أندر وقد بعثه معه تاجر من شنقيط من أقاربي طلب منه البحث عني في المخيم الأميري لإبلاغي الرسالة العاجلة التي بعثها لي شيخي أحمد بن ناصر وقد تأخر وصولها شهرين كاملين بحسب تاريخ كتابتها..

أخبرني الشيخ أحمد بن ناصر أن الفتنة السوسية قد خمدت بعد استسلام الأمير محمد العالم إثر حصار طويل لتارودانت

أهلك الحرث والنسل، وقد قاده جند السلطان إلى مكناس وفي واد بهت أقيم عليه حد الحرابة ومات في السجن... وقد ختم الشيخ أحمد بن ناصر رسالته بالقول: «كان قدر الله مقدوراً ولا حول ولا قوة إلا بالله».

هالني ما سمعت من أخبار، وكنت آمل في قرارة نفسي أن يرجع الأمير إلى رشده وتنتهي هذه الفتنة المؤلمة...

ولم يخرجني من جزعي وحزني إلا ساعات الصفاء والأنس التي كنت أقضيها مع أصدقائي محمد أليدالي ومسكة والقاضي الموسوي... كنا مولعين بالألغاز العلمية والأدبية، فصديقي أليدالي هو الذي رد على السؤال الذي وجهته لعلماء فاس وعلى رأسهم الفقيه الشهير ابن ذكري في شأن قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ وكنت قد سألتهم في قطعة شعرية طويلة:

أسـائـلـكـم مـا سـر إظـهـار ربـنـا
تـبـارك مـجـداً مـن وعـاء أخـيـه

فـلـم يـأت عـنـه أو مـن وعـائـه
لأمـر دقـيـق جـل ثـم يـحـيـيـه

وقد رد علي أليدالي بقصيدة ماتعة أجابت على اللغز الذي عجز عنه علماء فاس، ومنها قوله:

فـلـو قـال فـرضـاً ربـنـا مـن وعـائـه
فـذلـكـم بـعـد الـتـفـكـيـر فـيـه

يؤدي لعود الضمير ليوسف

فيفد معناه لمختبريه

لأن الضمير في الصناعة عائد

لأقرب مذكور هناك يليه

أما القاضي الموسوي فهو الذي رد على الأسئلة التي بعث السلطان مولاي إسماعيل مع المحلة التي أمد بها الأمير أعلي شنظورة لما اشترط أن لا يتولى القضاء إلا من استطاع حل هذه الألغاز العلمية العصية...

وكنت أحكي لأصدقائي الخلص مجالس الألغاز في النوادي المكناسية التي كنت أواظب على حضورها أيام إقامتي مع السلطان، وقد سألتهم عن معنى لفظة «الوخيذ» ومعنا مسكة وهو من جهابذة اللغة والبيان، فأنكر اللفظة... فحكيت للجمع ما وقع لي مع السلطان الذي كان شديد الاطلاع في القاموس واسع المعرفة باللغة، إذ ذكرت في مجلسه عبارة الوخيذ فقال لي هذه لفظة لا أصل لها لغة فأجبته إني أعرفها في الشعر القديم وأنشدته بيتين نظمتهما لتوي:

فقلت لصاحبي لما ارتحلنا

وقد شرع النجائب في الوخيذ

تمتع من لذيذ كلام حوراً

فما بعد العشية من لذيذ

وقد وعدت السلطان أني سأحضر الدليل من كناشي في الغد، فكتبت البيتين في كاغد ضمن منتخبات من الشعر المتداول وسخنت الورقة على النار حتى أصبحت كالمخطوط القديم الذي يخشى عليه من التلف، فاقتنع السلطان بالدليل، لكني أخبرته من بعد بحقيقة الحيلة، فضحك طويلاً وشاعت الأبيات بين الناس...

كان وقتنا يتأرجح بين هذه الجلسات العلمية والأدبية الرفيعة، والأوقات الطويلة التي نقضيها مع الأمير في انتظار بداية موسم العلك الذي يكون في الشتاء، وكان أعلي شنظورة طلب منا مرافقته هذه السنة عند افتتاح الموسم لحضور مفاوضاته المرتقبة مع الوالي الفرنسي المخادع ورؤساء التجار الفرنسيس...

وفي بداية شهر نيسان/ أبريل من السنة العجمية انطلق موكبنا إلى شمامة يتقدمنا الأمير ومعه وزيره ميلود وجمع من قواد جنده، فوصلنا بعد أسبوعين نهر أبجك أو نهر صنهاجة كما يسمى، ونزلنا في دكانة حيث استقبلنا جمع غفير من أعيان البلدة والكثير من التجار والسماسرة... كان موسم جني الصمغ قد بدأ كالعادة في الشتاء بانتشار جناة السلعة الثمينة في غابات القتاد الكثيفة، ويستمر هذا الموسم أسابيع ستة، ثم تكون المرحلة الموالية وضع المنتج في أوعية كبيرة من جلد الحيوان محمولة على الجمال والثيران..

عندما قدمنا إلى نواحي دكانة، كانت الخيام قد نصبت على مساحة واسعة مد البصر مع بعض العرايش من القصب وأبنية الطين البسيطة..

أقمنا في الخيام المخصصة لضيافتنا قرب مخيم أمير البراكنة امحمد ولد هيبة، وكان الأميران أوانها في هدنة وقد اتفقا على وحدة الكلمة مع ولاة الفرنسيس، وقررا اللقاء عند انطلاق الموسم..

ولم يكن الصمغ هو المادة الوحيدة المعروضة في الموسم الذي يرتاده التجار الأورباويون من كل حدب، وعلى الخصوص تجار قماش النيلة التي يجلبونها من مدينة بونتدشري الهندية (وإليها ينسب اسم أميرنا الذي اشتهر به أي شنظورة) مع آلات الحديد والزجاج، فضلاً عن البنادق الإنغليزية والبروسية ودقيق البارود، أما تجار شنقيط ووادان وواد نون وتوات فيجلبون أجود أنواع الخيل والبرانيس والأكيسة والأحذية والخناجر، أما تجار تيشيت وولاتة وتنبكتو فيجلبون الذهب وألبسة الحرير وعطور السودان... فيظهر بذا أن سوق الصمغ هي في حقيقة الأمر وجه بارز لمسالك التجارة في هذا البلاد الصحراوية المغربية السودانية الكبرى..

انعقد لقاء أميري الترارزة والبراكنة في خيمة كبرى منصوبة لهذا الغرض وكان أعلي شنظورة متميزاً بثوبه الأنيق من القماش الأبيض الذي انتشر في ما بعد لدى أعيان البلاد وصار معروفاً باسمه أي «الشنظورة» أو «الدراعة» وأصله كما علمت من باغنة، في الوقت الذي كان الرجال ما بين ملتحف بالجبة السوداء القصيرة من قماش النيلة أو البرنوس التواتي وهو لباسي

المفضل... والتحق بالأميرين في اليوم الثاني أمير الوالو البراك «يريم مبانييك» الذي كان انتزع استقلال مملكته من وصاية المملكة التونكلية لكنه لم يفتأ في نزاع دائم مع رؤساء القرى التابعة لدولته الذين يسمون بالكونغمات المدعومين من الوالي الفرنسي بروي.. ولقد اعتبر أعلي شنظورة أن الإجماع بين الأمراء الثلاثة سيحمل الوالي الماكر على قبول شروطهم للاتفاق في تجارة الصمغ وملحقاته...

وبالفعل اتفق الأمراء الثلاثة على وضع شروط قوية لمنح الفرنسيين حق احتكار تجارة الصمغ في النهر، مع حرص الأمير أعلي شنظورة على الاحتفاظ بحق التصرف في ميناءي أكادير وهدي في البحر الأطلنطي... وكان لا يزال ينتظر جواب الملك البروسي أو الأليكتير كما يسمى هناك، كما أنه بعث أحد خاصيته من الولفيين سراً إلى القلعة الإنغليزية في غامبية لحثهم على التعاون معه في التجارة الأطلنطية...

تم اللقاء الثلاثي بالوالي الفرنسي في مقره المحصن بأندر، وبدا أن الاتفاق قريب المنال خصوصاً ما يتعلق منه بالأعطيات والهبات المقدمة للأمراء والعزوف عن التدخل في صراعات الإمارات الداخلية ووقف تجارة العبيد إلى الهند الجديدة... وكان بروي الراجع منذ شهور من مهمة تمثيل مملكة باريس في طرابلس الشام قد أهداني كما أهدى صديقي مسكة كتباً مخطوطة نفيسة أساسها دواوين من الشعر اشتراها من هناك، وقد قال لنا إن

المقام طاب له في بلاد الشام إلا أن الملك أمر برجوعه إلى أندر بعد أن ساء الحال بعد ذهابه، وتعطلت تجارة الصمغ في البلاد...

كتب القاضي الموسوي شروط الاتفاق الخاص بإمارة الترارزة وأمضاه الأمير بعد أن تأكد من مطابقة ترجمته للفرنسية مع الأصل العربي وفق تقدير مترجمنا التاجر ذي الأصول الوادانية الذي تعلم اللسان الفرنسي من مخالطته الفرنسيس في أندر...

في طريق العودة عقد أعلي شنظورة لقاء مطولاً مع ملك الوالو بريم مبانييك قررا فيه التعاهد في السراء والضراء، ولتأكيد هذا الحلف تزوج أعلي شنظورة أخت ملك الوالو واسمها فاتو أي فاطمة حسب مألوفهم في التسمية.. وهي امرأة بارعة الجمال معروفة بحسن الرأي والتقدير، ولها مكانة خاصة في مملكة أخيها...

ولقد كان رأي ملك الوالو أنه لا خيار للترارزة والوالو إلا محاصرة قلعة أندر والاستيلاء عليها وطرد الفرنسيس منها والتخلص من شرورهم ومخططاتهم، ولم يكن أعلي شنظورة ضد هذا الرأي إلا أنه اعتبر أن النجاح في المهمة يتطلب الاعتماد على البروسيين والهولنديين والإنغليز، ذلك أن إجلاء الفرنسيس ليس موقوفاً على الاستيلاء على قلعة أندر كما يتوهم كثير من الناس، وإنما مواجهة خطيرة مع مملكة لويس الرابع عشر الذي هو أحد أكبر ملوك أوربة، وقد عرف من السلطان مولاي إسماعيل مقدار قوته وبأسه... وما دام الأمر كذلك، فالأمل كله

معقود على سفارة أحمد منصور في أمستردام ومبعوث الأمير السري إلى القلعة الإنغليزية في غامبية.

اتفق الأمير والبراك على اللقاء مجدداً قبل الخريف لاستجلاء كل الأمور، ورجعنا إلى المحصر دون أميرة الوالو التي تقرر بقاؤها في مملكة أخيها إلى وقت اللقاء القادم..

بعد أيام من رجوعنا للمحصر، قدم أحمد منصور سفير الأمير إلى الملك فريدريك وقد استغرقت رحلة رجوعه عن طريق ميناء هدي ستة شهور كاملة، فدعاني أعلي شنظورة للسماع منه... وكان قد قام بالمهمة على أحسن وجه، وقدم عرضاً جيداً من الملك الذي أعرب عن استعداده الوقوف مع الترارزة ضد أطماع الفرنسيس واستعادة جزيرة أكادير منهم لصالح الشركة الهولندية الداخلة في حمايته...

كان رأي أعلي شنظورة هو كتمان مضمون رسالة الملك البروسي أشد الكتمان حتى لا يصل مسامع الوالي الفرنسي أندري بروي الذي سرعان ما عاد إلى فرنسا وبلغنا أنه أصبح على رأس شركة الهند الفرنسية في مرسيلية.. وقد خلفه أحد أعوانه المقربين هو نيكولاس سانت روبرت ولم يكن له دهاءه ولا معرفته بالأرض والناس... كان سانت روبرت قد تولى أمور القلعة من قبل لكنه أظهر عجزاً فادحاً عن تصريف شؤونها، واصطدم بالسكان المحليين من السودانيين والمهجنين وتعرض مرتين لهجوم مسلح من أمراء فوتا وكايور، واتهم بالتواطؤ مع قراصنة البحار من تجار

العبيد الذين ينتزعونهم عنوة من القرى أو يشترونهم بثمن بخس من رؤساء القرى ممن لا دين لهم ولا خلق، وذلك ما أثار دوماً غضب علماء ومشايخ تلك البلاد الذين ضغطوا على أمرائهم لمواجهة تجار العبيد من الأورباويين وحلفائهم المحليين...

كان أول قرار اتخذه سانت روبرت هو إتلاف كل ما في قلعة أكادير والقضاء المبرم عليها، واعتبر أن مصلحة بلاده وشركته هو إيقاف التجارة في هذا المرسى البعيد من أندر الذي يتطلب تكلفة عالية من الرجال والمال والعتاد، والاكتفاء بمراكز النهر القريبة والتركيز على حمايتها وحراستها... والغريب في الأمر أنه لم يستشر أحداً في الموضوع، والأخطر من ذلك أنه طرد كل المقيمين بجوار القلعة من رعايا الإمارة فلجؤوا إلى الأمير شاكين حانقين.. ومن بينهم فارس مغوار اسمه سالم حاول مع بعض رجاله التصدي للحامية الفرنسية فقتل من رجاله خمسة رجال، لكنه نجح في أسر قائد من قواد الفرنسيس البارزين وأخذ عليه فدية كبرى من قماش غيني وطبغ ودقيق وبارود...

عندما علم أعلي شنظورة بالأمر استشاط غضباً وطلب لقاء عاجلاً بالقائد الهولندي ريرز الذي بعث له صديقه الشيخ أليدالي وكان وقتها في ميناء هدي... كان الأمير يطلب استيلاء الهولنديين العاجل على أكادير والانطلاق منها إلى قلعة سان لويس لمحاصرتها والسيطرة عليها بمساعدة محلة الأمير من الرماة وجند ملك والو المدججين بالسيوف والخناجر والبنادق..

عاد الشيخ أليدالي بعد أيام من مهمته، وقال للأمير أن القائد الهولندي يحتاج إلى إذن من رؤسائه في أمستردام وذلك ما يتطلب وقتاً طويلاً، كما أنه لا يمتلك من القوة والعدة ما يسمح له بالاستيلاء على آرغين ومحاصرة أندر... واقترح تجديد الاتصال بالإنغليز في غامبية لأنهم أقدر على القيام بالأمر...

وصل مبعوث الأمير السري إلى الإنغليز، وقال إنهم طلبوا رسالة عاجلة من الأمير إلى الملك الإنغليزي جورج الأول وسيوصلونها إليه عن طريق بريدهم العاجل إلى لندن.. وكان أعلي شنظورة قد بلغه أن هذا الملك له أصول بروسية وقد نشأ في تلك البلاد وعاش فيها ردحاً من الزمن قبل أن يصبح ملكاً متوجاً لهذه المملكة الكبرى التي تخافها كل الممالك الأوروباوية...

طلب مني الأمير تحرير كتابه إلى الملك الإنغليزي، وكان كالتالي:

«من أمير المسلمين أعلي شنظورة بن هدي بن أحمد دمان دام ملكه وعز أمره إلى الملك العادل والسيف القاطع جورج الأول... موجبه إخباركم أننا نحرص كامل الحرص على تقوية العهد معكم في كل ما أهم هذه البلاد وما جاورها من أرض السودان... وقد علمنا أن لكم قدماً في غامبية القريبة منا، وأن لكم عناية بشأن التجارة الأطلنطية التي نتحكم فيها... ولقد بعثنا لكم هذا الكتاب نحثكم على الوقوف معنا بالرجال والسلاح لإخراج الفرنسيس من أندر ومن ميناء أكادير على أن نمنحكم كل

الحقوق التي كانت للفرنسيس في هذه الأنحاء... ولكم منا صادق الود والتبجيل».

مضت شهور على رسالة الأمير إلى الملك الإنغليزي، وجاء الرد عن طريق والي الشركة الإنغليزية في غامبية يطلب مهلة من الوقت بالنظر إلى أن انجلترا وفرنسا في حلف جامع في الحال ضد ملوك الإسبان، لكنه وعد بإرسال بعض العدة من سلاح ومال عن طريق قنصل بلاده في مراكش...

لم يرض الرد الأمير أعلي شنظورة الذي بدأت تتزايد عليه ضغوط جيرانه البراكنة رغم إجلائهم خارج حدود إمارته، كما أنه لم يكن على ثقة من الفرنسيس وما يخططون له من خطط في جنوب البلاد وشمالها الغربي...

كان رأيه أن أعود للسلطان مجدداً طالباً منه مزيداً من الإسناد والدعم، إلا أن هذه المهمة الجديدة كانت تتطلب جهداً خاصاً بعدما حدث من أحداث جسام في بلاد سوس... فانطلقت قاصداً الزاوية الناصرية في درعة مستلهماً النصيحة والرأي.. وفي طريقي إلى تامكروت مررت بواد نون والتقيت بالقائد حامو سعيد وهو سيد الواد في تلك البلاد وزعيمها الأوحد، فأكرم وفادتي وأظهر استعداده تسهيل مهمتي في حال كتب له السلطان بمدي بما يحتاجه الأمير أعلي شنظورة من رجال وسلاح، وكان رأيه أن رجاله أقدر على الحروب والمواجهة في الصحراء من غيرهم كما أن بحوزته عدة هامة من البنادق الألمانية لا تتوفر لغيره..

مررت بالزاوية ومكثت فيها أياماً في رحاب شيخي الدرعي، ثم انتقلت إلى مراكش وكان السلطان وقتها مقيماً فيها، ففرح لمقدمي وصرف جلساءه للانفراد بي، وكانت زوجته الأميرة خناثة المغفرية تشاركنا المجلس من وراء حجاب... وقد بدا لي بعد سنوات ست لم أره فيها أن الشيخوخة أخذت منه مأخذها، فابيض الشعر وتراخت حركة اليد، وثقل السمع، لكنه كان صاحي العقل، ثبت اللسان، حاد النظر.

سأل السلطان عن أوضاع بلاد شنقيط، ووجدته شديد الاطلاع على حال تلك البلاد، وقد آلمته حروب المغافرة الداخلية، في شرق البلاد وشمالها، وصراع الترارزة والبراكنة الذي ما أن يخمد قليلاً حتى يشتد مجدداً، كما كان شديد الاهتمام بأوضاع فوتة والوالو ويرى أن الفرنسيس ما أن يحكموا السيطرة على تلك الأقاليم حتى يحكموا النطاق على كامل الصحراء ويصل تهديدهم قلاع المغرب الأقصى وحواضره كلها... ولذا فإنه عازم على إرسال جيش آخر لسد منافذ الخطر الجنوبية، ولا يرى مانعاً أن يكون أساس هذه المحلة من واد نون ودرعة كما نصح القايد حمو سعيد الذي يثق الملك في رجاحة عقله وحسن تقديره...

ودعني السلطان مولاي إسماعيل على عادته بصندوق من الكتب النادرة والجلابيب المراكشية الجميلة، وعدت سريعاً إلى الصحراء، وكانت محطتي الأولى مدينتي شنقيط، حيث مكثت

أياماً لزيارة الأهل وتجديد العهد بالأصدقاء والأصحاب، ثم أسرعت راجعاً إلى مخيم الأمير الذي كان يعد الأيام الطويلة مترقباً رجوعي.

الفصل السابع

عندما قدمت إلى المحصر لقيت الأمير أعلي شنظورة قد عاد لتوه من معركة طاحنة خاضها جنوب النهر إلى جانب حليفه في الدولة التونكلية صامبا غالاديو ضد خصومه من قومه الذين يقودهم الملك السابق كنكو موسى ومعه رماة تنبكتو وبعض عرب شمامة، في حين قاتل مع الأمير حليفه في الوالو يريم مبانييك الذي كان أيام طلبه للملك لاجئاً في فوتا..

قدم أعلي شنظورة منتصراً نصراً باهراً، مرفوقاً بوفد من الإمارة الفوتية من بينه فقيه متضلع في علوم الشريعة اسمه «عبد القادر» ومطرب عازف اسمه «غمبالا» لا يفتأ يكرر ملحمة وأمجاد ملك فوتا الجديد بين ألحان آلته التي تشبه العود الفاسي..

كان المطرب الشاعر يبدأ قصته المسلية كما سمعتها مراراً في مجلس الأمير أعلي شنظورة بترجمة الفقيه الفوتي بسرد مسيرة البطل كولي تنغلا الذي انطلق من بلاد السودان واخترق الصعاب واقتحم البحار والأنهار وتسلق الجبال حتى هزم ملوك جولوف

وأقام دولته العظيمة التي دانت لها رقاب الجبابرة وأطاعها العباد.. ثم يدلف إلى ملحمة صامبا غالاجو الذي قضى والده على حكم أبوبكر سيرى قبل أن يستعيد سيرى السلطة مدعوماً من الترارزة وجنود السلطان الشريف، ثم يحكم البلاد بوبو موسى وبعده ابنه كنكو الذي حرم الأمير صمبا من نصيبه من الملك فلجأ مضطراً إلى مملكة ماسنا...

يرفع «غامبالا» المطرب صوته عالياً عندما يسرد كيف وجد صمبا سكان ماسينا في غم عظيم وقد أزف الموعد السنوي الذي يقدمون فيه ثلاث فتيات في أجمل الحلل إلى الأسد «نيامرا دالال» ليلتهمن مقابل سماحه بسقيهم من النهر الوحيد الذي يشربون منه... بحركات بطولية ملموسة، يهتز المطرب متحدثاً بأعلى صوته كيف قتل البطل صمبا الأسد نيامرا دالال، وحمل رأسه إلى ملك ماسينا المسكين، فضربت الدفوف وذبحت الذبائح وتزوج صمبا بنت الملك...

إلا أن ملك ماسينا غدر بالبطل الفوتي الذي لجأ إلى أمير تنبكتو الباشا بن زكري، وكان في حرب مستمرة مع مملكة ماسينا فسانده ووقف معه في المعركة، وبعد أن كاد أن ينهزم جيش تنبكتو قفز صمبا من صهوة جواده وقتل عشرات المحاربين حتى وصل إلى ملك ماسينا فقتله وقطع رأسه، وحمله إلى الباشا الذي بعث معه جيشاً قوياً من الرماة استعاد بفضله ملك أجداده...

كنت أستمع لهذه الملحمة الغريبة مذهولاً، يشدني فيها طابع

الغرابة والخيال، ولا أعرف هل كان المطرب نفسه يصدق قصته المثيرة، ولعل الأمر لا يهمه بالفعل، فالمقام مقام تمجيد واحتفاء وتعظيم، والكلمة في هذا الباب سلاح من بين الأسلحة التي تشد الصف وتخيف الخصم...

إلا أن ما سمعته من أعلي شنظورة حول معركته الأخيرة في فوتا إلى جنب صمبا غالاجو في حربه ضد خصومه وأعوانهم يؤكد بالفعل أنه بطل مغوار، سديد الرأي، حتى لو لم يقطع رأس الأسد أو يقتل ملك ماسينا...

حاصل الأمر، أن الأمير أعلي شنظورة أخبرني أنه بعد انتصار حليفه في فوتا واستتباب الأمر لملك الوالو الجديد يريم مبانييك غدا في موقف أفضل لمواجهة أطماع ومكايد الفرنسيس، وقد ابتهج عندما أخبرته بنجاح مهمتي لدى السلطان وقرب قدوم محلة القائد الزركي حمو سعيد من واد نون...

انقضت أيام في المحصر في مجلس دائم للتباحث في شأن الموقف، قبل قدوم رسول الشركة الإنغليزية في غامبية الذي حمل صندوقين من المدافع سريعة الطلق بما تحتاجه من بارود مع إعلان الاستعداد لدفع المزيد من السلاح في حال الضرورة...

وهكذا اتضحت الصورة للأمير أعلي شنظورة الذي قرر الهجوم على قلعة أندر بمشاركة حلفائه من الوالو وفوتا والحامية السلطانية... إلا أنه كان قلقاً من الأعمال التخريبية التي تقوم بها عصابات الرماة السعديين الذين انفردوا بحكم تنبكتو وجوارها

وانقطعت صلتهم بالمغرب الأقصى، وإن لم يتمكنوا من بناء ملك حقيقي مستقر، بل كانوا في أشد التنافس والتنازع على السلطة، لا يكاد يقضي أحدهم عاماً كاملاً في الأمر قبل أن يخلعه قومه...

لقد تحولت هذا العصابات التي انضمت لها جماعات كثيرة من السكان المحليين إلى غزاة لا هدف لهم إلا إشعال الفتن والسطو على الناس، كما هو دأبهم في والو وفوتا، أما عدوانهم على أهل ولاتة وبواديها فأمر معروف سارت به الركبان، ولولا دفاع رؤساء المغافرة من أولاد الناصر وأولاد داود عن هذه الحواضر والبوادي لاستحال العيش في تلك الأنحاء...

ومن هنا كان عزم أعلي شنظورة على تأمين حدود الإمارة الجنوبية بقطع الطريق على هذه الجماعات المسلحة الخارجة على التحكم، التي تستغل مصائب ومشاكل هذه الأمصار لترويع الناس وسلبهم ما لهم من مال يسير، وتأجيج الفتن بين الخصوم، وربما تقوت بها الدعوات المتشددة الخارجة عن نهج التوسط والاعتدال الذي هو سمة هذه الشريعة الحنيفية.. وكان السلطان مولاي إسماعيل يشارك الأمير أعلي شنظورة الرأي ويوافقه على إناطة أمور الحرب والسياسة بالأمراء والقادة الشرعيين الذين يحفظون البيضة، ويضمنون السلم والأمن والسكينة...

طلب مني أعلي شنظورة السفر إلى منطقة الرقيبة في مهمة لدى الأميرين هنون العبيدي ولد محمد الزناكي رئيس الفرع الأبرز من شيوخ أولاد مبارك وأعمر ولد محمد ولد خونة قائد ادوعيش

من أجل تنسيق الجهد المشترك لمواجهة باشوات تنبكتو المتمردين على السلطان الشرعي، وتأمين الحدود المشتركة بين الإمارات والمشيخات الحسانية والصنهاجية من جهة والممالك السودانية التي مسها التحلل والضياع إثر انهيار دولتي الصونغاي وجولف.. كما أن المهمة تشمل جمع الجهد بخصوص تجارة الصمغ التي يقيمها ادوعيش ومن معهم من الصونكيين في محطة غلام حيث افتتح الفرنسيس مركزاً لشركتهم وأرادوا تحويل جانباً هاماً من تجارة الصمغ إليها..

كنت قد التقيت من قبل بالرجلين، أما الأمير هنون الذي كان من قادة المغافرة الذين التقوا بالسلطان مولاي إسماعيل خلال زيارته لبلاد شنقيط قبل سنوات فقد تعرفت عليه في حاضرة مكناس منذ عدة أعوام، وقد قدم للسلطان وقتها طالباً المساعدة في الاستيلاء على إقليم باغنة الغني بالذهب فأمده السلطان بما يلزم من الرجال والعدة، وأعطاه ظهيراً شريفاً بتوليته على تلك البلاد.. أما الأمير أعمر فقد تعرفت عليه في مدينتي شنقيط التي أقام فيها مدة من الزمن لطلب العلم على عادة أسرته الذين لهم صلة قديمة بشنقيط وقرابة معروفة بأهلها...

عندما قدمت على الأمير أعمر وجدته في مخيم منيع محصن أعلى جبل تكانت،.. لم أستطع تمييز سن الرجل، فهو من الأشخاص الذين يبدون خارج الزمان بقامته المديدة وجسمه النحيف ووجهه ذي القسمات الطفولية وبصره الممتد إلى

الأعلى... ومع أن لسانه كانا باشاً مرحباً، إلا أن وجهه لم يكن يعبر عن شيء، ولعلها صرامة البدوي المحارب الذي يتعلم كيف يخفي مشاعره وينكفئ على قلبه..

كان الأمير اليعيشي عائداً لتوه من معركة طاحنة خاضها مع أولاد امبارك وأبناء عمومتهم من أولاد الناصر في موقع اسمه كساري على مقربة من مدينة كمبي صالح المندثرة التي كانت عاصمة دولة غانا الشهيرة.. وكانت المعركة كما أخبرني الأمير ضد عرب أولاد بوفايدة الذين قتلوا خطأ ابن الأمير هنون ووافقهم على المصالحة، قبل أن يجد زوجته تنتحب باكية ابنها «ديدة» وتنشد من الزجل الحساني:

راح الازمـــــاك أهـــــطـــــال

مـــن تـــفـــكـــادي لـــلـــفـــراح

كـــيـــــف الـــي مـــاج والـــي

وكـــتـــــن ديـــده لـــي مـــا راح

وقال لي الأمير أن أم الولد القتيل أوصت راعي الإبل أن يقتل فصيل إحدى النوق، فلما عاد قطيع الإبل شاهد الأمير هنون الناقة في حال الثكلى فسأل عن السبب، فقالت له زوجته إن ابنها أحب إليها من ابنك... ومن هنا ثار ثوران الأمير وقرر شن الحرب على قتلة ابنه وأرسل إلى الأمير اليعيشي طالباً النجدة،

فأباد خصومه وشفى غيظه ووطد ملكه في بلاد الحوض وأطراف بلاد السودان من باغنة وكارتا..

قال لي الأمير: إن هذه المعركة وإن وطدت دولة أولاد مبارك شرقاً، إلا أنها أضعفتهم في تكانت والرقيبة وقد عزم على الدفاع عن استقلال بني قومه ولو كان الثمن هو الحرب مع حلفائه من أولاد امبارك... ولقد ذكر لي أعمر أنه عندما قاتل مع أولاد امبارك الذين هم حلفاؤه وله معهم علاقات أسرية مكينة فإنه عدل عن خط أبناء عمومته اللمتونيين الذين رفضوا حكم المغافرة وحاربوهم، وكان رأيه أن البلاد تتسع للجميع، كما أنه انضم للحملة التي قادها ابن أخت السلطان المولى إسماعيل في إسنادها للأمير هنون الذي اتفق معه في لحن القول بضرورة التخلي عن تكانت والركيبة وتركيز حكمه في الحوض..

ولقد وجدت الأمير أعمر حصيف الرأي، حاذق التدبير، مشاركاً في العلم، وواسع الاطلاع على أحوال البلاد، وفي ذهنه أمجاد أجداده من المرابطين، وإن كان يدرك أن حقائق الزمن تفرض عليه الاكتفاء بما هو متاح من الحكم في حدود أرضه وبني قومه دون الاصطدام بجيرانه من أبناء المغافرة إن هم بادلوه السلم..

حملني الأمير أعمر سلامه لأعلي شنظورة وقبوله الاتفاق معه بشأن تجارة الصمغ والعلاقة مع الفرنسيس والوقوف ضد حملات الرماة في فوتا والوالو... وبعث معي فرساناً من خاصيته لإيصالي

إلى مقر الأمير هنون في الحوض، وكان على أطراف مدينة ولاتة..

دخلت إلى مخيم الأمير ضحى وفق التقليد المألوف، فالمعروف أن المخيم الأميري لا يستقبل أحداً بعد غروب الشمس لأسباب أمنية، ولذا قررت مع رفقتي المبيت على كثبان رملية على مسافة قريبة من الحلة اي مقر الأمير حسب التسمية الدارجة...

عرفت خيمة الأمير منذ أول نظرة بموقعها في وسط الحلة، وكانت خيمة كبيرة الحجم من الوبر الأبيض، تحيط بها الخيل من كل النواحي، ويتناوب على حراستها فرسان أشداء يحملون بنادق على أكتافهم..

كان هنون قد بلغ الستين من عمره، وإن كان لا يزال خفيف الحركة، سليم الصحة؛ حاضر الذهن.. وقد خرج من خيمته لاستقبالي وأمر بضرب الرصاص احتفاء بي على عادة أمراء أولاء امبارك في الترحيب بضيوفهم... كان الأمير يرتدي ثوبين أزرق على نمط الجبة السودانية وأبيض من القطن المغربي الرفيع الذي شاهدته في توات وسجلماسة وقيل لي إنه من هدايا السلطان مولاي إسماعيل التي يبعثها للأمير...

كان مجلس هنون يبدأ في الصباح الباكر بألحان آلة «التيدنيت» في المقام الموسيقي الذي يسمى بلكتري وهو لحن خفيف لطيف تستطيبه النفس يعزفه أحد خاصيته من «ايكاون» وهم

رفقاؤه من أهل المعازف والغناء الذين يحفظ لهم الود ولهم مقام رفيع في الحلة، يجمعون بين مهمة المؤرخ الراوية وحارس الأخلاق والشيم فضلاً عن الترويح عن النفس لحظة الأنس والترفيه...

وبعد الاستماع إلى معزوفة لكتري يبدأ الأمير يومه بتدبير شؤون إمارته من علاقة بغيرها من الممالك والدول وتدبير أمور الحرب وسد حاجيات الناس، وقد ألفيته كريم النفس، جواد اليد، لا يرد سائلاً ولو كان خصماً لدوداً.. ويحكون في ذلك قصصاً غريبة منها قصة ذلك الفتى الغريب الذي أراد سرقة فرسه ذات الفصيلة النادرة، وعندما لحقوا به وقيدوه قبل مثوله أمام الأمير لإنزال أشد العقوبات عليه استطاع أن يصل بأصابعه إلى إحدى آلات التيدينيت أي العود الموسيقي فعزف لحناً جديداً جميلاً سمعه الأمير هنون في آخر الليل، فطلب إحضار العازف وعندما أخبروه بخبره أمر بفك قيوده ومنحه الفرس النادرة ومعها حمل قافلة من الحبوب والتمر والقماش والذهب، لكن الفتى المحظوظ آثر البقاء في حلة الأمير وأصبح من خاصية أميرها.

بادرني الأمير هنون بالسؤال: «هل القاضي الفقيه ممن يتشدد في أمر السماع والغناء.. فأنتم سكان شنقيط قيل لنا أنكم لا تعرفون من أمر هذا الفن شيئاً وبعضكم يبالغ في إنكاره، مع أنه ليس سوى ألحان جميلة وكلمات معبرة عن مكارم الأفعال والأخلاق؟».

أجبت الأمير أن التجربة الطويلة في الأسفار ومخالطة الناس جعلتني أكثر انفتاحاً وأقل تشدداً من بني بلدتي، ولم أسمع في مجلس الأمير ما ينكره الشرع ويخرج عن المروءة.

وقد تعرفت في مجلس الأمير هنون على مطرب مقرب منه يسمى «بهدول» قيل لي أنه من أعلام هذا الفن الكبار، ذكر لي أن أصل هذه الصنعة الموسيقية من الأندلس.. وقد أورد لي حكاية طويلة خلاصتها أن أول من أدخل هذا الفن الذي يدعي «أزوان» هي قينة أندلسية معروفة من عائلة زرياب المغني الشهير، فرت من غرناطة بعد سقوطها ومعها ابنها الصغير، وقد جابت بلاد الدنيا شرقاً وغرباً تبحث عن الأمير الذي يستحق أن تعزف له المعزوفة الخاصة التي استأمنها أبوها عليها قبل قتله من القشتاليين الغزاة.. وبعد أسفار طويلة، قادها القدر إلى أحياء أولاد مبارك فطاب لها المقام ووجدت ما تبحث عنه من خصائص الشهامة والكرم والشجاعة، وقد أصبح ابنها أستاذاً عظيماً في الفن، واشتهر بقصائده التمجيدية الكبرى التي تسمى بتهيدين وأغلب الأسر الفنية تنحدر منه...

كان الأمير يبتسم عندما يسمع هذه القصة الخارقة التي يرويها طول الوقت بهدول قبل أن يدخل في المجلس الموسيقي اليومي الذي يتبع نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه، حسب أطوار أربعة تناسب أحوال النفس المختلفة من الفرح الذي تعبر عنه نغمة «كر» والحماس الذي تعبر عنه نغمة «فاغو» إلى الشوق الذي تعبر عنه

نغمة «سنيمة» إلى الحزن الذي تعبر عنه نغمة «لبتيت»... ولهذه الموسيقى الثرية طريقان بيضاء وسوداء وطريق ثالثة تسمى «الكنيدية» وفي كل منها مقامات كثيرة ترتبط في جلها بأمجاد ومآثر أمراء أولاد مبارك...

لم يكن تعلم الموسيقى ومجالس الطرب أساس مهمتي لدى الأمير، بل كان الغرض من الزيارة ما سبق أن ذكرت من أمر التنسيق والتشاور بخصوص تهديد باشوات تنبكتو لأمن وسلامة البلاد جنوباً وشرقاً... وكانت ولاتة قد تعرضت في تلك الأيام لهجمات متكررة من جماعات الرماة تذكر باعتداءات القائد شنان والباشا الخضير قبل سنوات، ولولا نجدة هنون لهلكت البلاد والعباد...

قال لي الأمير هنون أن أمن ولاتة حاضرة العلم الكبرى ومفخرة بلاد شنقيط العريقة يرتبط بأوضاع تنبكتو وبلاد أزواد، ولذا فإن أولاد مبارك عانوا الكثير في جلب السلم والأمن إلى هذه المنطقة منذ أن انقطعت السبل بين الرماة السعديين وسلاطين المغرب وأصبح الباشوات المتمردون يعيثون في البلاد فساداً.. وقد واجهوا بقوة ما أراده القائد مصطفى هير من السيطرة على هذه البلاد بالتحكم في مسالك القوافل، فناصروا البرابيش في قتاله وهم اليوم في وضع مكين في أروان وعلاقة أميرهم أنيس بن عيسى بن عبو بن مخلوف بالإمارة وطيدة وإن كانوا في حرب متواصلة مع عصابات تنبكتو، إلا أنهم يتحكمون في الطرق

التجارية المؤدية إلى تنبكتو ولهم حامية دائمة في مملحة تغازة التي لا تخفى أهميتها في حركة التجارة... وقد بعث لهم السلطان مولاي إسماعيل جيشاً قوياً من أربعمئة مقاتل غير الخدم والحشم دعماً لملكهم في تلك الأقاليم الوعرة...

لم يخف علي من حديث الأمير هنون أنه يتخوف على مستقبل نفوذه في تكانت والركيبة بعد أن برزت إرادة أمراء ادوعيش الاحتفاظ بهذه البلاد تحت سيطرتهم، وكان رأيه أن دولته الواسعة لا يمكن أن تحكم إلا بالتحالف مع القبائل الصنهاجية الكبرى مثل ادوعيش ومشظوف، إلا أن هذه القبائل التي تنحدر من أصول فاتحي الصحراء من دعاة ملوك المرابطين لا تفتأ تظهر فيها دعوات استقلال وتميز يوشك أن تعرض دولة أولاد مبارك للخطر...

ذكرت للأمير هنون أن الدعوات التي ظهرت في الأعوام الأخيرة بين قبائل الزوايا لنصب الإمامة الشرعية قد أخفقت في إحياء دولة المرابطين الصنهاجية، وما تحتاجه البلاد اليوم هو إمارات قوية تبسط السلم والأمن... وإذا كانت المجموعات الصنهاجية في الشمال والجنوب قد اصطدمت بأمراء المغافرة وهزمت في الحرب، فإن الحال مختلف في وسط هذه البلاد وشرقها حيث لا يمكن أن يتوطد حكم ولا تقوم دولة دون هذه القبائل ذات الشوكة المنيعة...

كان الأمير يوافقني الرأي، لكن الكثير من الأحداث الصغيرة

التي تتالت خلال إقامتي التي استمرت شهوراً في حلة أولاد امبارك عززت مخاوفه في انهيار الحلف القائم بين بني قومه وادوعيش...

من آخر هذه الأحداث الفتنة التي جرت قرب نهر المسيلة الذي يقصده فتيان أحياء ادوعيش وأولاد امبارك في بداية الخريف طلباً للترويح عن النفس... وقد جرت مناوشات كثيراً ما تجري بين الفتيان قتل فيها على سبيل الخطأ الشاب اليعيشي «ببش» فتى من أولاد امبارك اسمه «أعلي الأحمر» عزيز في قومه... وقد التقى جمع من الطائفتين لتسوية الأمر واتفقوا على أن يدفع اليعيشيون دية مغلظة مئة من كل أنواع الماشية إبلاً وبقراً وأغناماً وخيلاً.. إلا أن الفارس اليعيشي «بلأدي» أخفى فرسه الشهيرة «انجيم» ورفض دفعها في الدية وعندما علم الأمير أعمر بالموضوع طالبه تسليم فرسه فأذعن قائلاً: «ليس للجبناء رأي»، فأثار غضب أعلي باب ولد اعمر وهو أحد فرسان ادوعيش المعروفين، فركب الفرس وانطلق بها مسرعاً وقال: لن ينتزعها مني أحد وأنا حي أرزق...

ورغم أن الأميرين أعمر وهنون حاولا تسوية الأمر، إلا أن الحرب اشتعلت في تكانت والركيبة ودامت سنوات ثلاث، وعندما غادرت بلاد الحوض كانت لا تزال مشتعلة، وقد بلغني بعد ذلك أنها انتهت بانفصال الفريقين واستقلال ادوعيش ببلادهم..

مع بداية الحرب بين أولاد امبارك وادوعيش أصبحت

الأجواء غير مؤاتية لاستمرار مهمتي، فقصدت قصر السلامة حيث صديقي الطالب مصطف ومحمد أبو الكساء.. وقد وجدتها مدينة محصنة في سفح جبل كنديكة الأسود، وهي عامرة بالبشر، قصدها الناس من كل الأنحاء طلباً للعلم والأمان.. وجدت المدينة أقرب ما تكون إلى ما قرأته حول رباط عبد الله بن ياسين والأمير يحي بن إبراهيم الكدالي... كان الطالب مصطف يتولى القضاء والإشراف على خطة العلم ويعقد يومياً مجلساً للحل والعقد يتبادل فيه الرأي والمشورة مع جماعته كما يشرف على دار طلبة العلم وهي دار فسيحة تغص بالمتعلمين، وأبو الكساء يتولى إمامة المسجد الذي بني على منوال جامع شنقيط العتيق، أما الحاج المين فكان إمام ركب الحجيج وهو الذي يتولى استقبال القادمين الكثر إلى المدينة وله مهابة كبرى واحترام تام لدى شيوخ العرب وأمراء ورؤساء البلاد... أما الشريف الأكحل كما يسمونه فهو مولاي محمد الإدريسي الفاسي، قبلة المريدين وقاصدي التوبة والترقي الروحي، وله مكانة فريدة في البلدة التي يروي أهلها حول مقدمه قصصاً خارقة ويربطون ما تتمتع به من رخاء بهذا الحدث الذي أخبر به الطالب مصطف بني قومه قبل ظهوره بسنوات...

فرح أصدقائي بقدومي للمدينة، وانقضت أيام الزيارة التي أمضيتها بصحبتهم وقد تجاوزت الشهر الكامل في سرور وغبطة... ومع فرحي بحال هذه البلدة الآمنة المطمئنة، إلا أنني أخبرت

قومي بتخوفي على مستقبلها، وكنت على يقين أن المتربصين بها كثر، وأن إعادة تجربة المرابطين في هذه الأصقاع ممتنعة مستحيلة... ومهما توافد أبناء القبائل على هذا الحصن العلمي الروحي الرفيع، إلا أن حال هذا الرباط لن يكون أحسن من محاولة زوايا القبلة إقامة الإمامة الشرعية التي نص عليها فقهاء الأحكام السلطانية وكانت عاقبة أمرهم الهزيمة...

كان أصحابي ينصتون إلي باهتمام وينفون عزمهم إنشاء دولة دينية في هذه الأصقاع، إلا أنهم يرون أن الواجبات الشرعية تقتضي الفرار بالدين في أماكن آمنة يقصدها الناس فراراً من الظلم ولجوء إلى الخير والهدى... ولم تغب عن ذهني تجارب زوايا درعة وبلاد سوس، وإن كنت أشك أن مثال الزاوية الناصرية قابل للاستنساخ في بلادنا...

والحال أن زوايا مدن الشمال قد أسسوا عدة قصور في شرق البلاد أرادوها حواضر للعلم والدين وحصوناً للخائفين، وقد عرفت منها قصر تكبة الذي أسسه العالم الفقيه الطالب الصديق واستوطنه وعمره العالم الفقيه الكبير سيدي المحجوب اليوسفي بعد دمار تنيكي التي كانت كما أدركنا الناس تقول تعادل مصر في العلم والرخاء، وقد قابلت سيدي المحجوب من قبل في رحلتي لتوات وهو مثال للعلم والفضل، وقد رثيته عند وفاته وأرخت لها في نظمي في وفيات أعيان البلاد...

ومن هذه المدن قصر المبروك الذي أسسه شمال شرق تنبكتو

الحاج أبوبكر، وقد بلغنا أنه صار غاية في الازدهار والرخاء تمر عليه قوافل التجارة المنطلقة من توات لبلاد السودان، ويقصده طلبة العلم والتصوف...

في قصر السلامة قابلت فتى راجح العقل، واسع العلم، ظاهر الصلاح يدعى سيدي محمود بن المختار قادم من وادان، وكنت على معرفة سابقة بوالده وأعمامه خلال إقامتي بتلك المدينة أيام طلب العلم... كان سيدي محمود ملازماً للطالب مصطف الذي قدمه لي متوسماً فيه الخير والفلاح والسيادة..

لم أستطع قبول دعوة أصحابي في قصر السلامة البقاء معهم، رغم طيب المكان ومتعة الصحبة... فلقد كتب علي السفر في مناكب أرض الله الواسعة... وإن كنت قضيت جل حياتي خارج مدينتي شنقيط إلا أني لم أتخذ غيرها وطناً... بل كانت ترحل معي في كل مكان زرته، وأراها في كل مشهد أعيشه وأتزود من ذاكرتها العطرة في ترحالي...

كما كنت وثيق الارتباط بالأمير الصديق أعلي شنظورة الذي تركته يواجه دسائس ومؤامرات الفرنسيس وغدر وخيانة بعض قومه، ومخاطر الجماعات الخارجة على الحكم في ترويعها للناس وسطوها على أموالهم..

غادرت قصر السلامة ببعض الحسرة التي تشبه حسرة فراق شنقيط، ولا غرو فهي قبس من مدينتي وأهلها من خاصية قومي..

رجعت إلى المحصر بعد سفر طويل في شرق البلاد في أرض أولاد مبارك ادوعيش وحواضر الركيبة... ووجدته قرب منهل خروفة بمنطقة إيكيدي وكان الزمن في نهاية الخريف الذي كان ممطراً هذه السنة، ومن ثم كان الجميع مستبشراً بموسم جني الصمغ الذي لا شك في أنه سيكون هذه السنة متميزاً.. ولا يخفى أن الصمغ تحول في السنوات الأخيرة إلى محور عيش أهل هذه البلاد وأساس إنتاجهم ومبادلاتهم التجارية وهو بالنسبة للإمارة مصدر الدخل الأساس ومرتكز العلاقة بالخارج وبصفة خاصة بالدول الأورباوية التي يبدو أنها في طريقها إلى السيطرة على العالم كله بما توفر لها من أسباب القوة غير مسبوقة...

استقبلني الأمير أعلي شنظورة بحفاوته الاعتيادية، وجلسنا مطولاً نتحدث عن مهمتي في الركيبة والحوض... وكنا على إدراك تام أن الأمور في الصحراء تتغير أكثر من قدرة الناس على التواصل والتدبير.. فبين حال البلاد وقت سفري وحالها بعد رجوعي أمد بعيد، فهل كانت مهمتي مجرد لغو وفضول، وما هي أهمية تقديري ونصحي اليوم وقد تكون الأمور تغيرت في الجوهر بعد رحيلي؟

لقد تعود أهل هذه الصحراء أن لا ينظروا إلى غدهم ولا يفكروا في قابل أيامهم، وكيف لهم أن يمسكوا بخيوط مستقبل لا يتحكمون في أقل شروطه؟ وأنى لهم أن يستبقوا أحداثاً ليس لهم من التأثير عليها إلا النزر القليل الذي لا يغني شيئاً؟

لذا كان الحكم في هذه البلاد ضرباً من القيافة والفراسة، شأنه شأن أتباع إثر الجمل الشارد أو الناقة الحرون، أو الضرب بالرمل على طريقة العجائز اللواتي يخترقن الغيوب ويختمن حديثهن بالقول الدارج: «ما صدقناها ولا كذبناها»...

حدثت الأمير مطولاً عن الأميرين هنون وأعمر وعن حروب القبائل وغزو الرماة... ولعله لم يجد في كلامي أكثر من قصص التسلية والترفيه، فكان فكره كله منحصراً على ما استجد بعدي من صراع محتدم مع الوالي الفرنسي في أندر الذي بدأ يضايق تجار الصمغ من الترارزة ويحصر مراكز التبادل في محطات الدويرة وغلام..

حدثني الأمير أن الفرنسيس استولوا على ميناء هدي وطردوا منه الهولنديين، وقد وقع معهم اتفاقاً بمنحهم حق استخدامه للتجارة مقابل بعض الامتيازات والمكوس التي يدفعونها له سنوياً... لكنه طردهم من أكادير، وانتصر على قائدهم فورغير دي لاريغوديير الذي حاول الاستيلاء على الجزيرة وقاد كتيبة من أشد الفرسان لهذا الغرض فانهزم شر هزيمة.. وقال لي الأمير أن والي أندر يريد من حصار الإمارة فرضها على الاستسلام في أكادير، وقد أراد بناء ميناء بديل عن أكادير قرب النهر في موضع يسمى غراك لكن محاولته فشلت ولم يبق له إلا التفاوض مع أعلي شنظورة وحلفائه من الوالو الذين يشاركونه الامتعاض من إجراءات الوالي الأخيرة..

طلب مني الأمير تحرير رسالة إلى الوالي الفرنسي يتظاهر فيها بقبول شروطه لاستئناف التجارة في محطات الترارزة، بما فيها منحه كل الامتيازات المطلوبة في أكادير، لكنه كان يضمر مشروعه الجريء في الاستيلاء على قلعة أندر وطرد الفرنسيس بالتعاون مع أمراء الوالو وفوتا ومحلة السلطان...

كتبت الرسالة وأمضاها الأمير وبعثها مع وزيره ميلود ومترجمه ذي الأصول الوادانية، لكنه كان يحضر سراً قرار الحرب التي أرادها مباغتة سريعة وحاسمة، وكانت الاتصالات مستمرة لا تنقطع بينه والبراك في والو والساتيغي في فوتا...

رد والي أندر برسالة تنضح بالمكر والخبث تحمل عدة شروط لاستئناف تجارة الصمغ مع الترارزة من بينها شرطان تعجيزيان، أولهما التخلي كلياً عن سياسة النفوذ جنوب النهر وترك بلاد الوالو والفوتا للفرنسيس، وثانيهما طرد المحلة المكناسية كما يسميها وإرجاعها إلى واد نون..

لم يكن الأمير ليرضى بهذه الشروط الاستفزازية؛ لذا وضع خطة محكمة للهجوم على الفرنسيين ليس في قلعتهم الحصينة بأندر وإنما في مراكزهم في الدويرة وغلام وغرك.. وحين يذوقون الهزيمة وتتشتت صفوفهم يباغتهم في أندر نفسها قبل أن تصلهم النجدة من فرنسا..

بعث الأمير بعض خاصيته إلى ملكي والو وفوتا لإطلاعهما

على الخطة وأوصى رسله بالحذر وحفظ السر، وطلب منهم العودة في أسرع الآجال...

كنت أناقش الأمر طول الوقت مع الأمير الذي لم أعهد فيه التهور والمغامرة، بل كنت أجده شديد الحذر، طويل التدبر والتفكير.. لكنه كان يرد على شكوكي بأن الحكمة قد تقتضي في بعض الأحيان الحزم والحسم، ثم يردد من شعر أبي الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

كان رأي أعلي شنظورة أن الفرنسيس لن يكتفوا بالاستيلاء على مراكز تجارة الصمغ واحتكار التبادل مع الترارزة وغيرهم من سكان هذه البلاد، بل إنهم سيضربون أهل البلاد بعضهم ببعض ويذكون الحروب بينهم، قبل أن يحكموا السيطرة على المنطقة بكاملها..

بعد أيام من الانتظار. وصل رسل الأمير إلى الوالو وفوتا، وفي حين أبلغوا خطاب وفاء وعهد من حاكم الوالو «يريم مبانييك»، حملوا من الأخبار ما لا يسر من فوتا حيث أطاح الملك المعزول المنفي «أبو بكر سيرى» بحليف الأمير البطل الشجاع «صمبا غالاديو» بدعم من الرماة والبراكنة، وقد لجأ غالاديو إلى بلاد البوندو حيث يعتزم التحضير لاستعادة ملكه..

عندما تلقى الأمير هذه الأخبار، قرر العدول عن خطته

الأولى، واعتبر أن الخطوة الأولى لا بد أن تكون استرجاع ما له من حضور وتأثير في جنوب النهر لكي يتمكن من مواجهة القلعة الفرنسية في أندر، فدون سند مكين من الممالك السودانية الجنوبية لا قبل له بمحاربة الفرنسيس الذين لا شك أن لهم نصيباً من مسؤولية ما جرى في فوتا..

أرسل أعلي شنظورة مبعوثاً سرياً إلى حليفه صمبا غالاديو وأمراء البوندو يستحثهم على الهجوم على القلعة الفرنسية في بلاد غلام المعروفة بجودة ذهبها، واتفق معهم على موعد دقيق للهجوم، على أن يتلوه إعلان الحرب على ملك قوتا وأعوانه من الرماة..

وذلك ما كان فعلاً... نجحت خطة الأمير وكان نصره عظيماً، دمر القلعة الفرنسية وقتل حاكمها وأسر رجاله، واستولى على كميات كبيرة من الذهب وحاصر القرية التي كان يقيم فيها أبوبكر سيرى الذي هرب وتحصن في إحدى الجزر القريبة منتظراً دعم الرماة وحلفائه من البراكنة...

كانت هذه الأخبار تصل إلي وأنا في أطراف شمامة حيث انتقل المحصر في بدايات الشتاء.. وفي حين كنا نتوقع عودة الأمير لمرافقته إلى الرحلة السنوية لموسم الصمغ على المحطات النهرية، بلغنا أن الحاكم الفرنسي في أندر أرسل رجاله إلى المحطات النهرية التي يقصدها الترارزة فدمروها واستولوا على محاصيل التجار دون تعويض ولم يبقوا إلا على مرسى الدويرة الذي يقصده البراكنة..

بعد أيام من هذه الأحداث، وصلتنا الأخبار أن أعلي شنظورة داهم مرسى الدويرة ودمره، واستولى على ما فيه، فاشتعلت الحرب بينه وبين البراكنة وحلفائهم... ثم وصلنا خبر مقتله في هضبة «ونون»، فكانت مصيبة كبرى وداهية عظمى أصابت البلاد كلها... فقد كنت شديد التعلق بهذا الفارس الشهم الذي أمضى ثماني عشرة سنة في الحكم عزز فيها دولته وانتصر على أعدائه، وحاول بكل ما له من جهد أن يجمع كلمة أمراء هذه البلاد للوقوف ضد مخططات الفرنسيس...

قدمت صادق التعازي لابنه وخليفته الأمير الشاب البطل أعمر، وقررت العودة إلى مدينتي شنقيط لأقضي بقية أيامي في هذه الدنيا، وقد تقدم العمر ووهن العظم واشتعل الرأس شيباً..

الفصل الثامن

عدت إلى شنقيط في الأيام الأخيرة من سنة 1139، بعد أن ودعت الأمير الجديد أعمر ولد أعلي شنظورة الذي بدأ عهده بمواصلة جهود والده في تعزيز استقلال الإمارة وتوطيد أركانها..

وقد وصلتني وأنا لا أزال في بلاد القبلة أخبار وفاة السلطان مولاي إسماعيل الذي كان دون شك من أعظم ملوك الإسلام ومن أكبر الفاتحين والبناة في هذا المنكب الأقصى من الغرب الإسلامي.. أوليس من غريب الاتفاق أن يتزامن رحيل ملك المغرب الكبير مع وفاة الأمير الهمام، وقد كان له نعم السند والملجأ وقت المحنة والعسرة؟

كما وصلني وأنا في شنقيط عن طريق بعض طلبتي وفاة علامة البلاد ومفخرتها الطالب مصطف وقد تزامنت مع رحيل السلطان والأمير... وقد عرفت من طالب العلم المذكور أن قصر السلامة الذي بناه أصحابي قد تهدم وضاع إثر هجوم الرماة المتكرر عليه، وأن الحصن العلمي والديني الرفيع الذي كنا نأمل

منه تجديد علوم الشرع وصيانة الامة قد مسه ما مس غيره من الحواضر التي بناها أعلام حواضرنا العتيقة، كما هو حال قصر تكبة وتيكماطين..

رجعت إلى شنقيط، وقد عدت بحمل ثقيل من تجربة التطواف في بلاد الله الواسعة، صحبت فيها الملوك والأمراء، ودخلت القصور المذهبة، وقابلت أنواع الخلق من عرب وعجم ومن أهل القبلة وأهل الكتاب، تعلمت فيها أكثر مما تعلمت من الكتب الكثيرة التي قرأت وعلمت لغيري...

وكما كانت شنقيط محطة سيري الأولى ها هي اليوم تصبح المحطة الأخيرة في كدحي الطويل في الحياة... سرعان ما استغرقني الحال اليومي في هذه المدينة التي تتوقف فيها حركة الزمن، فلا تلاحظ فيها بعد طول غياب أي تبدل أو تغير...

ولعل ذلك الشعور بالاستمرار والأبدية هو سر الإحساس القوي بالأمان الذي تمنحه هذه المدينة الهادئة لسكانها... ومع أنه شعور وهمي بالنسبة لمن أدرك حقائق الأمور واطلع على كنه الأشياء، إلا أن الإقامة ولو قصيرة في شنقيط تحول هذا الوهم إلى حقيقة راسخة لا تقبل التفنيد والإنكار...

لقد أصبح السؤال الذي يشغلني بعد أن رجعت إلى مدينتي هو كيف الوصول إلى مبتغى الإصلاح بعد أن ضاقت سبله في دائرة الأمة الواسعة، كما ضاقت في دائرة الوطن الأضيق التي هي هذه البلاد الصحراوية؟ فهل في البلدة الصغيرة ملاذاً وحلاً؟

أم أن الإصلاح في حقيقته كما أدرك من قبل إمامنا أبو حامد يكون في إصلاح النفس والخروج من المدينة والانعزال عن الخلق؟

كنت أرى في السلطان مولاي إسماعيل الإمام الموعود لتوحيد الغرب الإسلامي بأقوامه من العرب والصنهاجيين والزناتيين والسودان بعد أن تفككت البلاد وسقطت الأندلس واستولى العثمانيون على طرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط... وإذا كان هذا السلطان حرر الكثير من الثغور ووقف حاجزاً منيعاً ضد الممالك الأورباوية وضد العثمانيين ووطد وحدة المغرب الأقصى، إلا أنه لم يكن بوسعه رغم طول عهده أن يقوم بأكثر مما قام به، وحسبه أنه حفظ المغرب الأقصى من مطامح القشتاليين ودسائس الممالك الأورباوية ومن غزو العثمانيين...

أذكر ما قاله لي الفقيه اليوسي في فاس وهو العالم المتبحر والحكيم الذي عرك الحياة أن نهاية الخلافتين العباسية في الشرق والأموية في الأندلس كانت تعني في العمق أن عصر الدولة الإسلامية الموحدة الجامعة بين دار الملة ودار الإمامة قد انتهى.. وما نعيشه في الزمن الحاضر هو انبثاق محاولتين لإنقاذ الأمة وفق نظام السلطنة، سواء في محاولة العثمانيين الأتراك الذين اخترقوا أواسط أوربة وهم اليوم في خطر شديد من تعاظم قوة ممالكها في فرنسة وإنجلترا وروسيا، أو محاولة الأشراف السعديين ومن بعدهم الدولة الإسماعيلية التي هي اليوم أمل الغرب الإسلامي

وإن كانت تتعرض للمخاطر ذاتها... لقد كان رأي اليوسي هو أن التجربة أثبتت أن حفظ الدين والأمة منوط بالحكم القاهر الشامل كما ذهب إلى ذلك دوماً فقهاء هذه البلاد من عهد المرابطين، أما الأولياء والصلحاء فإن كان انقياد العامة لهم سهلاً وتعلقهم بهم شديداً فإن سلطتهم على الأرض غالباً ما تتحول إلى داهية وخسران، ولا يخفى حال الدلائيين في شمال غرب البلاد والسملاليين في الجنوب، وكذا حال المجاهدين في الثغور الذين نذروا أنفسهم لمحاربة الغزاة وتحرير الحصون والأمصار فإن هم طمعوا بالملك والأمر العام كما هو حال المجاهد العياشي في الغرب انتهوا إلى الفشل والهزيمة..

وعندما زرت في تونس قبل سنوات الباي الحسين بن علي وهو ملك واسع الاطلاع، قوي الحجة، يتحدث باللسان التركي وألسنة الأورباويين، وجدته في غم عظيم لما استقر عنده من يقين أن عصر الخلافة قد انتهى عملياً، وليس للشعار الذي يرفعه سلاطين بني عثمان معنى، بل إن دولتهم بدأ ينخرها التفكك والعجز وهم على إدراك بأن طريقهم للبقاء والاستمرار ليس سوى تقليد جيرانهم من الأورباويين في أنماط العيش والحكم، حتى لو كانوا مرغمين على الحفاظ على راية الشرع وصورة الخلافة.. أما الدولة الإسماعيلية فكفاها حسب قول الباي أن تؤمن الثغور وتحمي البيضة والملة في غرب الصحراء وبلاد السودان، ولقد أدركت ما أدركه العثمانيون أنفسهم من ضرورة بناء جيش قوي

يدين بالولاء المطلق للحاكم بدل الاعتماد على شيوخ القبائل وقواد البدو والجبال...

وإن كنت أبعد ما أكون عن الاعتقاد أن المخرج هو الاعتصام بهذه الصحراء الفسيحة التي شكلت في العصور السابقة ملجأ للفارين من الظلم والعنت، والباحثين عن سكينة العزلة، والمتصيدين مغامرات الحكم، إلا أنني عقدت في بعض سنوات عمري الأمل على حلف القبائل المعقلية المحاربة والزوايا العالمة ومن في ودهم وحلفهم من قبائل السودان وملوكها لتجديد عهد المرابطين الذين كانوا أول من وحد هذه البلاد المغربية السودانية ودفع بها أطماع الأعداء من القشتاليين والأورباويين...

لم أكن من الذين تحمسوا لإمامة ناصر الدين على ما له من فضل كبير وكسب في الجهاد جنوب النهر بما فتح عليه نقمة الفرنسيس وحلفائهم من القواد والملوك المحليين، لأني اعتبرت أن أمر الأمة يقتضي الشوكة الجامعة والعصبية الكاملة الحاسمة، ولا يكفي فيه ورع الإمام وصلاح هديه ووقوف الصفوة معه.. وذلك ما سمعته من شيخي ابن بلعمش وفقهاء شنقيط ووادان الذين وقفوا ضد دعوة الشيخ المجذوب...

لقد تحمست للأمير أعلي شنظورة وكان كما عرفته أميراً عادلاً شهماً وشجاعاً، لكن يبدو لي اليوم أني حملته فوق طاقته.. لقد أردت منه أن يكون كالسلطان أحمد بن منصور الذهبي أو المولى إسماعيل دون أن أدرك أن شروط القوة والغلبة والتأثير لم

تعد تتوفر في هذه البلاد الصحراوية التي تكالبت عليها الفتن الداخلية والأطماع الخارجية... بل إني وإن ظاهرت هذا الأمير الهمام في حروبه المتتالية ضد الفرنسيس غرباً وجنوباً إلا أني انتهيت إلى إدراك أن كل تلك الحروب هي في نهاية المطاف ضربٌ من شجاعة الفرسان في الوغى التي تكشف عن براعة الفارس وشجاعته، لكنها لا تحسم حرباً ولا قتالاً، فشأن الحرب موازين العدد والعدة لا بسالة الفارس وصواب الرأي والحجة..

هل كان أصدقائي الشناقطة الذين هاجروا إلى قصر السلامة ومن سعى سعيهم في تكبة والمبروك وغيرها من الحواضر المحصنة قد أدركوا السر الصحيح بإنشائهم حواضر تجذب طالبي العلم والتائبين من السطو والغزو والخائفين من الظلم والطغيان، بعد أن انتكس حال القصور العتيقة بتراجع طرق القوافل التجارية واشتداد غزوات أعراب الصحراء؟

لقد مر بذهني هذا السؤال، بعد أن انقلب أمر هذه الحواضر خراباً، وبدا لي أن الدعوة وإن كانت عادلة لا تستقيم دون شوكة حامية وحصن منيع.

فأين المفر وقد أقفرت حواضر العلم والدعوة، وتحللت إمارات الحكم واشتد خطر الغزاة والبغاة؟

لم يبق إلا الاحتماء بشنقيط، وهل فيها ملجأ وحماية، أم هي اليوم منفى المعتزل بعد أن قل السكان وتضاءلت التجارة وانقطعت السبل؟

لقد استقر بخاطري اليوم وأنا أحث السير إلى مضجعي في مقبرة البلدة أن الحكمة كلها في العزلة وعدم الاختلاط بالخلق، كما أدرك حكماء العصور السابقة من المسلمين وغيرهم.

قد يبدو لك أيها العزيز أن قوام أمر هذا الدين بالتزام الجماعة والتمسك بأحكام وآداب المخالطة، وهو أمر لا غبار عليه ولا مناص منه إن اجتمعت الشروط وحضرت الأسباب، ولا يكون ذلك إلا في مجتمع صلح أمره وقام على النهج السوي مسلكه، فتكون المخالطة تعاوناً على الخير والبر وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.. أما إذا امتنعت طرق الخير، فالأحرى بالمرء إغلاق بابه والانصراف لخاص شأنه...

ولست بمتعرض لما تجادل فيه فقهاء الظاهر وعلماء الباطن من أهل الصوفية حول أفضلية الخلوة والجلوة، وما أراه هو أن خلاص النفس أولى من طلب إصلاح الناس... بل إن حمل الناس على العدل والفلاح غالباً ما يؤدي إلى ضرر أكبر وشر أوسع، لما للقوة من أثر مضر وما تفضي إليه في الغالب من شطط وتجاوز..

وإن كنت لا زلت على الإيمان الوثيق بحاجة العامة لإمامة القوة والغلبة لحفظ مصالح الدين والدنيا كما قال فقهاؤنا من أئمة أهل السنة والجماعة، إلا أني قد خلصت بعد طول تدبر وتفكير إلى أن أمر الدولة ليس ضمان العدل وإقامة الدين وإنما الغرض الأوحد منها هو سد فراغات الملة الصحيحة بميل البشر الطبيعي

للظلم والفتنة.. فإن صلح حال الناس خفت الحاجة إلى الدولة، وذلك ما أدركه بعض فقهاء هذه البلاد عندما اعتبروا أن في الجماعة غنى عن قهر السلطة وتحكمها... إلا أن صلاح الجماعة لا يكون إلا في العزلة والجمع القليل، فإن اتسع المقام وكثر العدد كان لا مناص من شر الدولة...

لقد خبرت هذه المسالك كلها، واقتفيت كل تلك السبل، وهأنذا اليوم أرجع لنفسي باحثاً في خفاياها وخباياها عن القوة التي تمنح السكينة والاطمئنان بعد أن عز المقصد في صحبة الناس ومخالطة أهل الشأن والمال والحكم..

في ليالي شنقيط الشتوية القارسة الطويلة، حيث يسود الصمت الصحراوي الرتيب أردد دوماً من شعري مودعاً هذه الدنيا التي عركتها طويلاً:

تبجحت عند الموت والموت بغيتي
ولو كنت هتاكاً لما الله حرما

وطابت نفسي لأني قادم
على خير مقدوم عليه وأكرما

عسى غافر الزلات يغفر زلتي
ويستر أوزاري وما قد تقدما

انتهت الرواية بتاريخ 27 أيار/مايو 2020 في النباغية.

السيد ولد أباه

رواية

الشنقيطي

لقد أصبح السؤال الذي يشغلني بعد أن رجعت إلى مدينتي، هو كيف الوصول الى مبتغى الإصلاح بعد أن ضاقت سبله في دائرة الأمة الواسعة، كما ضاقت في دائرة الوطن الأضيق التي هي هذه البلاد الصحراوية؟ فهل في البلدة الصغيرة ملاذاً وحلاً؟ أم أن الإصلاح في حقيقته... يكون في إصلاح النفس والخروج من المدينة والإنعزال عن الخلق؟

فأين المفرّ وقد أقفرت حواضر العلم والدعوة، وتحللت إمارات الحكم واشتد خطر الغزاة والبغاة؟

لم يبق إلا الاحتماء بشنقيط، وهل فيها ملجأ وحماية، أم هي اليوم منفى المعتزل بعد أن قلّ السكّان وتضاءلت التجارة وانقطعت السبل؟

لقد خلصتُ بعد طول تدبّر وتفكير الى أن أمر الدولة ليس ضمان العدل وإقامة الدين، وإنما الغرض الأوحد منها هو سدّ فراغات الملّة الصحيحة بميل البشر الطبيعي للظلم والفتنة... إلا أن صلاح الجماعة لا يكون إلا في العزلة والجمع القليل، فإن اتسع المقام وكثر العدد كان لا مناص من شر الدولة...

قد يبدو أن قوام أمر هذا الدين بالتزام الجماعة والتمسّك بأحكام وآداب المخالطة، وهو أمر لا غبار عليه ولا مناص منه ان اجتمعت الشروط وحضرت الأسباب، ولا يكون ذلك إلا في مجتمع صلح أمره وقام على النهج السوي مسلكه، فتكون المخالطة تعاوناً على الخير والبرّ وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.. أما إذا امتنعت طرق الخير، فالأحرى بالمرء إغلاق بابه والانصراف لخاص شأنه...

لقد خبرتُ هذه المسالك كلها، واقتفيت كل تلك السبل، وهانذا اليوم أرجع لنفسي باحثاً في خفاياها وخباياها عن القوة التي تمنح السكينة والاطمئنان بعد أن عزّ المقصد في صحبة الناس ومخالطة أهل الشأن والمال والحكم.


المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

الدار البيضاء/بيروت
الدار البيضاء: 212522810406+ / بيروت: 9611747422+
markazkitab@gmail.com

ISBN 978-9920-627-48-1
9 789920 627481